همنغواي

الأديب العاشق

القصة التي لم ترو بعد

أ. إ. هوتشنر









القصة التي لم تروَ بعد



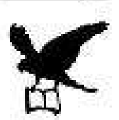












شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: publishing@all-prints.com
tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

ISBN: 978–6144–58–537–5 النسخة الورقية
ISBN: 978-6144-58-304-3 النسخة الإلكترونية

Originally published as: **Hemingway In Love.**

ترجمة: هاجر المصلح

تدقيق لغوي: وفيق زيتون
صورة الغلاف: **Flickr/Florida keys-Public Libraries**
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: بسمة تقي

إلى

إلى زوجتي



صورة إرنست مع هوتشنر في حانة إلـ تشوكو في لا فيريا دي سان فيرمين. بامبلونا، إسبانيا، 1954. مجموعة أ. إي. هوتشنر الشخصية

المحتويات

كل الأشياء الشريرة حقًا
تبدأ من براءة.

إرنست همنغواي

مقدّمة

قبل خمسين عاماً، أي بعد بضع سنوات على وفاة إرنست همنغواي، كتبت «بابا همنغواي»،

وهو سردٌ قصصي لمغامراتنا وعثراتنا معًا على مدى ثلاث عشرة سنة. للذين لم يقرأوا ذلك في «بابا»، أشير هنا مجدّدًا إلى ربيع 1948، عندما أُرسلت إلى هافانا بمهمة سخيفة وهي أن أطلب من همنغواي كتابة مقال عن «مستقبل الأدب». كنت أعمل في ذلك الوقت لحساب مجلّة «كوزموبوليتان»، التي كانت في تلك الفترة مجلّة أدبية، قبل أن تجرّدها هيلين غورلي براون من غايتها الأصلية، وكان رئيس التحرير يخطّط لإصدار عدد حول مستقبل كل شيء: فرانك لويد رايت عن الهندسة، هنري فورد II عن السيّارات، بيكاسو عن الفن، وكما ذكرت، همنغواي عن الأدب.

لا يعرف أي كاتب بالطبع عن مستقبل الأدب أبعد مما سيكتبه في صباح اليوم التالي، إن عرف ذلك أصلاً. ومع ذلك، وصلتُ إلى فندق ناسيونال بهدف محدّد، ألا وهو طرق باب همنغواي لأطلب منه قراءة الطالع الأدبي من أجل «كوزمو» العزيزة. حاولت تفادي هذه المهمة البغيضة، ولكني كنت أعمل على أساس «اذهب ونفّذ وإلّا»، ولم يكن باستطاعتي تحمّل «وإلّا»، فلم يكن قد مضى عليّ أكثر من ستة أشهر في الوظيفة، وهي الوظيفة الوحيدة التي استطعت الحصول عليها بعدما بدّدت راتب نهاية الخدمة في سلاح الجو، أثناء عام من اللهو في باريس.

من باب التسوية، وجدت حلًّا جبانًا للخروج من تلك الورطة، فكتبت رسالة قصيرة إلى همنغواي أطلب منه فيها أن يرسل لي، إذا سمح، رفضًا مقتضبًا، على أن يكون مفيدًا جدًّا لمستقبلي.

بدلًا من ردّ خطّي قصير، تلقّيت في صباح اليوم التالي اتصالاً هاتفيًّا من همنغواي، اقترح عليّ فيه احتساء المشروب الساعة الخامسة في الفلوريديتا، حانته المفضلة في هافانا. وصل همنغواي في الموعد تمامًا، فارضًا وجوده المهيمن، ليس بطول قامته، التي لم تتعدَّ ست أقدام سوى ببوصتين تقريبًا، ولكن بتأثيره على الجميع. عند دخوله، التفت إليه كل من كان في المكان.

وضع الساقي أمامنا مشروبَي دايكيري مثلَّجين سُكِبا في كأسين مخروطيتين ضخمتين لدرجة أن بإمكانهما احتواء ورود طويلة الساق.

«بابا دوبلاس هو أكبر إنجاز فني يحقّقه صانع الدايكيري»، قال إرنست. تحدّث بنفاذ بصيرة وحس دعابة حادّ عن الكتّاب المشهورين وعن فريق البيسبول بروكلين دودجرز، الذي كان هناك لإجراء تمارين الربيع، وعن الممثّلين والملاكمين المحترفين وشخصيات هوليوود الزائفة والسمك والسياسيين. عن كل شيء باستثناء «مستقبل الأدب». غادر فجأة بعد كأس الدايكيري الرابعة أو الخامسة. ضعت في العدّ، لكني تذكّرت، رغم أن مشروب الروم شوّش رأسي، أنه سيقلّني عند السادسة صباحًا ويصطحبني في جولة بمركبه بيلار على مياه مورو كاسل. عندما عدت إلى الفندق، وبالرغم من عدم ثبات قلمي، تمكّنت من تدوين بعض الملاحظات عن حديثنا على ورقة أخذتها من الفندق. اعتدتُ تدوين بعض الملاحظات، طوال الوقت الذي عرفته فيه، عمّا تم قوله وفعله في أي يوم من الأيام، لأضيف إليها في وقت لاحق أحاديث سجّلتها على «الميدجتايب»، وهو مسجّل صغير بحجم اليد تكفي أشرطته لتسعين دقيقة من التسجيل. تراسلتُ أنا وإرنست على ذلك النحو أحيانًا. ومع أن الأشرطة تفتّتت بعد استخدامها بوقت قصير، إلا أني وجدتها مفيدة.

وجّه إرنست البيلار من الدفة العليا وقاد المركب عدّة ساعات على طول الساحل. في طريق العودة، اصطدنا بالصنّارة ما وصفها بـ «سمكة مارلين تأخّر نموها»، لكنّها بدت لي حوتًا كامل النمو. أحكم إرنست ربطي إلى كرسي الصيد وأعطاني الصنّارة ببكرتها الكبيرة الثقيلة التي تعلّقت سمكة المارلين بطرفها الآخر. لم أكن قد اصطدت من قبل أي شيء أكبر من سمكة قاروس بوزن خمسة كيلوغرامات من مركب تجديف، وسأدخل على الأرجح في صراع مرير، وقد أخسر المارلين أيضًا، إلا أنّ إرنست وجّهني في كل خطوة، من الوقت المناسب للسحب وتثبيت خطّاف الصنّارة، إلى الوقت المناسب للف الخيط لتقريب السمكة لالتقاطها. غير أن الإثارة التي شعرت بها

عند لف الخيط لإخراج ذلك الوحش زالت عندما قام إرنست ومعاونه غريغوريو فونتس بنزع سمكة المارلين من الخطّاف وإطلاق سراحها.

«فلنقم بتشكيل شركة صيّادين جديدة»، قال ممازحًا، «هوتشنر وهمنغواي، مورّدا سمك المارلين». خفّف كلامه الحسرة التي شعرت بها في قلبي لعدم التقاط صورة لي على الرصيف مع سمكة المارلين، سواء كانت متأخّرة النمو أم لا، وهي تتدلّى من ذيلها بجانبي.

خلال السنين اللاحقة، لاحظت في مناسبات لا تُعدّ مدى الصبر الذي كان يبديه إرنست تجاه الشباب أمثالي. كان يتفاعل معهم بسهولة. في حالتي، مثلاً، وبالرغم من أني خضعت لتدريبات عسكرية على الأسلحة النارية، إلا أني كنت فاشلاً في إطلاق النار على الأهداف الطائرة؛ غير أن إرنست وجهّني بكثير من الصبر إلى إطلاق النار ببراعة على البطّ البرّي المحلّق عاليًا انطلاقاً من القنوات الواقعة عند سفوح جبال سوتوث في ولاية أيداهو، وعلى ذكور الحجل عند تحليقها منطلقة من حقول الذرة. وكلّما قويت صداقتنا زاد إدراكي أن القصص التي انتشرت حول شخصيّته المشاكسة الفظّة لم تكن سوى خرافات اخترعها أشخاص لم يعرفوه، لكنهم أصدروا عليه الأحكام استنادًا إلى المواضيع التي كتب عنها. كان سيقاوم أي معتدٍ بالتأكيد، لكنّي لم أره قطّ يعتدي على أحد.

بعد عودتنا من المركب إلى الناسيونال، ونحن نودّع أحدنا الآخر أمام الفندق، قال إرنست، مشيرًا إلى ذلك للمرة الأولى: «الحقيقة هي أني لا أعرف أي شيء عن مستقبل أي شيء».

أكّدتُ له أنه طلب غبي.

سأل عن المبلغ الذي سيُدفع له، وعندما أجبت عشرة آلاف دولار، قال إن ذلك كافٍ ليفكّر بمستقبل شيء ما، ربما قصة قصيرة، وأن علينا أن نبقى على اتصال.

وهذا ما فعلناه على مدى الأشهر الثمانية التالية، التي أبلغني عند نهايتها أنه مشغول بكتابة روايةٍ قُمتُ في نهاية المطاف بتحريرها للمجلّة. أثناء ذلك، رافقت إرنست وزوجته ماري إلى باريس والبندقية للتحقّق من تفاصيل بعض أجزاء رواية «عبر النهر وبين الأشجار»[1]، وكانت تلك بداية صداقتنا، التي أخذتنا مع مرور السنين إلى أماكنه المفضّلة يعود إليها مرارًا وتكرارًا: صيد الحجل والبط البرّي والحجل الهنغاري في كيتشوم؛ مصارعة الثيران في مدريد وملقا وساراغوسا،

والمنافسات بين مصارعَي الثيران العظيمين أنطونيو أوردونيز ولويس ميغال دومينغين وصيد أسماك المارلين في وسط البحر؛ ومباريات جاي ألاي في هافانا؛ وسباقات الحواجز للخيول في أوتوي، باريس؛ والمباراة النهائية لكرة القدم الأميركية وبطولات الملاكمة المحترفة في نيويورك، على سبيل المثال لا الحصر.

لكن، عندما أعود بالذاكرة إلى تلك السنين، تبرز واقعة واحدة قطعت علينا تسلسل مغامراتنا: حادثا تحطم طائرة متتاليان تعرّض لهما إرنست في الأدغال الأفريقية. اقترب إرنست من الموت الوشيك في حادثة التحطّم الثانية، وأثّرت فيه تلك التجربة بشدة. كان مصمّمًا أن يطلعني على فترة مؤلمة من حياته لم يسبق له أن تطرّق إليها. أراد أن أطّلع عليها في حال لم يجد فرصة للتحدث عنها.

خلال السنين اللاحقة، وبينما كنا في سفر، عاش مجدّدًا عذاب تلك المرحلة في باريس عندما كان يكتب «الشمس تشرق أيضًا» ويعاني في الوقت نفسه من تجربة مؤلمة أخرى هي الوقوع في حب امرأتين معًا، التجربة التي لازمته ذكراها إلى أن مات.

ذكرتُ بعض هذه الأخبار الحميمة التي باح لي بها في النص الأصلي لكتاب «بابا همنغواي»، ولكن عندما أحالت دار راندوم هاوس للنشر النص إلى المحامين من أجل التدقيق فيه قبل نشره، مرّر المحامون النص في عصّارتهم القانونية الحذرة. ونتيجة لذلك تقرّر شطب اسم كل شخص مذكور لا يزال على قيد الحياة. خلال استجوابي عن الأشخاص المذكورين في النص، بالغ المحامون كثيرًا، حتى أنهم طالبوا بإثبات أن ف. سكوت فيتزجيرالد، الذي كان مضى على وفاته عشرون عامًا، قد توفّي حقًّا.

كان لديّ أيضًا سبب شخصي للموافقة على حجب ذكريات إرنست في ذلك الوقت. كانت ماري همنغواي صديقة حقيقية ومخلصة، وارتأيت أن إطلاعها على ما قاله إرنست عن زوجتيه الأوليين قد يجرح شعورها، ويُفضَّل بالتالي إخفاؤه عنها.

غيّبت السنون الماضية شيئًا فشيئًا كل من كان له دور في تلك الفترة. كنت قد احتفظتُ بالأقسام المقتطعة من نسخة «بابا» وأضفت إليها قدرًا كبيرًا من ملاحظاتي الأصلية، علاوة على

المادة التي جمعتها آنذاك من الأشرطة قبل تلفها. وما زلت أذكر جيّدًا ما حدث وما قيل خلال تلك الفترة الحاسمة من حياتي.

ما زال بإمكاني سماع طريقة إرنست المميَّزة في الكلام. لم يدوّن إرنست يومياته أو ملاحظاته، إلا أن قدرته على تذكّر الأحاديث كانت مذهلة. لم يستحضر الأحاديث التي حصلت منذ وقت بعيد فقط، لكنّه كان أيضاً قادرًا على محاكاة إيقاع معاصريه وأسلوبهم، مثل ف. سكوت فيتزجيرالد، وجوزفين بايكر، وجيرترود ستاين، وغيرهم من روّاد باريس المنتظمين. تظهر هذه القدرة المدهشة في رواياته وقصصه القصيرة، ويمكنني أن أشهد شخصيًّا على هذه المهارة، نظرًا إلى أنه أعاد كتابة محادثة جرت بيننا بشكل دقيق في رواية «الصيف الخطر»، وهو كلام كُتب بعد مرور وقت طويل على مصارعة الثيران التي دار حولها الحديث.

سألته ذات مرّة إن كان يحتفظ بيوميّات أو ملاحظات من أي نوع لشحذ ذاكرته، فأجاب، «لا، فالأشياء تعلق دائمًا في ذهني. لم أحتفظ قط بملاحظات أو بيوميّات. أضغط فقط على زر التذكّر فتحضرني. وإن لم أتذكّرها فهذا يعني أنها لم تستحق تخزينها».

يجدر بي أن أضيف توضيحين أو ثلاثة إلى تلك الملاحظة. لقد كتبت ما قاله لي إرنست، عندما كان يضغط على «زر التذكّر» أثناء رحلاتنا، حول فترة حسّاسة من حياته، تمامًا مثلما ذكره لي، دون أي محاولة من قبلي لتصحيح أو تغيير أي شيء تذكّره عن الناس والأحداث في الماضي البعيد؛ ربما صوّر إرنست بعض الأشياء بطريقة رومانسية أو ضخّمها أو وضعها في غير موقعها، لكني اعتبرت هذه الشوائب العرضية جزءاً لا يتجزّأ من شخصيته. على سبيل المثال، عندما أشار إرنست إلى استيديو ميرفي، حيث سكن بعد انفصاله عن هادلي، قال إنه كان في الدور السادس، بينما ذكر آخرون ممن يعرفون ميرفي أن ذلك الاستديو كان في الدور الخامس. ولكن في مثل هذه الحالات، تغلب ذكريات إرنست.

توضيحي الآخر هو أني لست، بأي شكل من الأشكال، مشاركًا صامتًا في سرد قصة إرنست. فعلى مرّ السنين، لم تكن الأوقات التي عشناها معًا، أنا وإرنست، أوقاتًا عادية بالنسبة إليّ. لقد كان «بابا» بالفعل. أدركتُ أهميته دائمًا، أهمية ما قاله وفعله. قد تكون ملاحظاتي التي كتبتها في تجوالي، استنادًا إلى أشرطة تلفت منذ زمن، ساعدت وحفّزت ذكرياتي، إلا أني اعتمدت بدرجة كبيرة على ما تذكرته شخصيًّا في كتابة هذا الكتاب.

عشت مع قصة إرنست وقتاً طويلاً. هذه ليست ذكرى مدفونة تم نبشها. لقد ائتُمنتُ على القصة التي رواها لي خلال أسفارنا لهدف محدّد. حملت مسؤولية الاحتفاظ بتلك القصة طوال هذه السنين، وأشعر الآن أن من واجبي ومسؤوليتي تجاه إرنست أن أطلقها أخيرًا من ذاكرتي.



صورة لإرنست مع زوجته ماري، حول هداياه في حفلة عيد ميلاده الستّين.

تشوريانا، إسبانيا، 1959: أ. إي. هوتشنر

الفصل الأول

غرفة في مستشفى سانت ماري

في بداية حزيران/يونيو 1961، في طريق عودتي من هوليوود إلى نيويورك، سافرتُ على متن طائرة توقّفت في منيابولس.

من هناك، استأجرت سيّارة، وقدت تسعين ميلاً إلى مستشفى سانت ماري في روشستر، حيث كان صديقي الحميم، إرنست همنغواي، طريح قسم الطب النفسي للمرة الثانية في المستشفى ذاته، تحت رعاية أطباء من مايو كلينيك القريبة. سبق أن زرته هناك عندما كان حبيس غرفته للمرّة الأولى قبل ذلك بأسابيع عدّة.

خلال الأسابيع الستة السابقة، لم يُسمح لإرنست بإجراء اتصالات هاتفية أو تلقّيها، أو استقبال الزوّار، ولا حتى زوجته ماري، أثناء خضوعه لسلسلة من جلسات المعالجة بالصدمة الكهربائية. والآن، في فترة الاستراحة التي سبقت استئناف سلسلة أخرى من هذه الجلسات، سمح له أطباء مايو كلينيك بالاتصال بي هاتفيًّا والترتيب لزيارة.

لم يكن لدى مايوكلينيك مرافق استشفائية، ولكن كانت هناك شراكة مع مستشفى سانت ماري في روشستر، تحت إدارة زمرة من الراهبات اللواتي سمحنَ لأطباء العيادة بمعالجة مرضاهن في المستشفى.

في تلك الحقبة، كانت الصدمة الكهربائية تُعطى بشكل وحشي، إذ يُرسَل التيّار الكهربائي إلى داخل دماغ المريض دون أي مخدّر؛ وكانت قطعة من الخشب توضع بين أسنانه وهو يتلوّى من شدة الألم. شخّص أطباء مايو كلينيك بأن إرنست يعاني من حالة اكتئاب اضطهادي، ووصفوا له الصدمات الكهربائية كمحاولة لتخفيفها.

طُرح وقتها العديد من التوقعات وراء انهياره: أنه مصاب بسرطان قاتل أو أن لديه مشاكل مالية؛ أنه تشاجر مع ماري. لكنّ أيًا منها لم يكن صحيحًا. كان أصدقاؤه المقرّبون يعرفون أنه عانى من الاكتئاب والرُّهاب طوال السنة السابقة، لكنّ جذور معاناته لم تكن قد كُشفت بعد، هذا إذا كانت ستُكشف في يومٍ من الأيام. حاولت إقناعه بالمنطق، محاولاً مساعدته في التغلّب على بعض أشكال

الرُّهاب المدمّرة التي عانى منها، لكنّ التقدّم القليل الذي أحرزناه كان للأسف مؤقّتًا. حاولت كذلك إبعاده عن بيئته المدمّرة وذلك بترتيب جولة كبيرة نمرّ بها على كل أماكن الصيد حول العالم التي طالما رغب في الذهاب إليها، ولكن عشية الانطلاق في الرحلة، تراجع عن الذهاب. وعندما ألحّت عليه ماري لاستشارة طبيب نفسي رفض، وقال إن لديه طبيبًا نفسيًّا: آلته الكاتبة.

التقيت أنا وإرنست كثيرًا خلال سنوات صداقتنا الثلاث عشرة. حوّلت العديد من قصصه ورواياته أعمالاً تمثيلية للتلفزيون والمسرح والسينما. اشتركنا في مغامرات في فرنسا وإيطاليا وكوبا والمكسيك وإسبانيا. خلال فصل الصيف الذي سبق بدء أوهامه، استمتعنا معًا بجولة رائعة حول مدن إسبانيا العديدة حيث أقيمت مصارعات الثيران بين مصارعَي الثيران الأشهر في إسبانيا - الصهرين أنطونيو أوردونيز ولويس ميغيل دومينغين (كانت مصارعات قاتلة، بين مصارعَي ثيران اثنين بدلاً من ثلاثة كما هو معتاد). في إحدى تلك المدن - سيوداد ريال - ألبسني أنطونيو بزّة مصارع الثيران الخاصة به، ومنحني لقب إل بيكاس (أبي النمش)، وحثّني إرنست على دخول الحلبة لأكون سوبري-ساليَنتي (مصارع ثيران ثالث يصارع الثور فقط إذا جُرح المصارعان المُعلن عنهما بقرني الثور وأصبحا عاجزين عن المصارعة) لهذين المصارعين العظيمين، بينما تظاهر أنه مدير أعمالي. وبصفتي سوبري-ساليَنتي، كان عليّ القيام بتمريرة واحدة إلزامية من أجل الجمهور، لكنّ إرنست أوصاني بالبقاء قرب أنطونيو، الذي ساعدني على النجاح في المحاولة بحثِّهِ الثور على مهاجمته هو، بطريقة لا يدركها المشاهدون.

كان حماس إرنست للحياة معديًا.

في تموز/يوليو 1959، احتفلنا بعيد إرنست الستين في تشوريانا، وهي قرية في التلال المشرفة على ملقا، بحفلة رائعة دامت يومين. نظّمت ماري همنغواي، زوجة إرنست الرابعة، كل شيء لتلك الحفلة، فقد شعرت أن انعدام التعاون من قِبلَ إرنست في الماضي جعل أعياد ميلاده السابقة تبدو كأنها استراحة وليست احتفالاً، وكانت مصمّمة على تعويض جميع الحفلات الضائعة بهذه الحفلة. وقد نجحت في ذلك.

كانت هناك شمبانيا من باريس، وطعام صيني من لندن، وباكالاو ألا فيزكايّنا (يخنة سمك القد بالطريقة الباسكية) من مدريد، وكشك رماية من كرنفال متجوّل وخبير بالألعاب النارية من فالنسيا (قلعة الألعاب النارية)، وراقصو فلامنكو من ملقا، وموسيقيّون من تورّيمولينوس. حضر الضيوف

من كل صوب ومنهم مهراجا جايبور وزوجته وابنهما؛ ومهراجا كوش بيهار مع زوجته؛ والجنرال س. ب. «باك» لانهام من واشنطن العاصمة (قاد الجنود في معركة غابة هورتغن، التي شارك فيها إرنست بحكم منصبه في الحرب العالمية الثانية)؛ والسفير دافيد بروس وعقيلته، اللذان سافرا بالطائرة من بون؛ وعدّة أعيان من مدريد؛ والعديد من رفاق إرنست القدامى من باريس.

استمتع إرنست بوقته كثيرًا. عند كشك الرماية، استخدم بندقية قديمة بالية لإطلاق النار على أعقاب سجائر بين شفتيّ مهراجا كوش بيهار وأنطونيو أوردونيز، مصارع الثيران الأول في إسبانيا. وقاد صفًّا من الضيوف في رقصة الكونغا ودار بهم في أرجاء المكان، وفرح بفتح كومة الهدايا التي قُدّمت له وبرفعها عاليًا ليراها الجميع.

أما أبرز حدث في الحفلة فكان عندما أطلق ساحر الألعاب النارية من فالنسيا دفعة من الصواريخ العملاقة، نزلت على أعلى نخلة قرب البيت وأضرمت النار برأس الشجرة. تم على إثرها إبلاغ إطفائية ملقا. بدا خطّاف الإطفائية وسلّمها وكأنهما خارجان من كوميديا ماك سِنِت، وكذلك رجال الإطفاء أيضًا. تسلّقوا الشجرة وأطفأوا اللهب، ثم جعلهم إرنست على الفور جزءًا من الحفلة. أثناء ما تبقّى من الليلة، لبس إرنست خوذة رئيس الإطفائيين المعدنية؛ ركب أنطونيو عربة الإطفاء وقادها بسرعة كبيرة حول المكان، بينما جلس إرنست بجانبه ودوّت صفّارة الإنذار.

كانت نهاية ذلك الصيف آخر الأوقات الطيّبة.

خلال السنة التالية، شاهدت تغيّرات مفاجئة ومحيّرة في سلوك إرنست: عدم قدرته على تلخيص كتاب «الصيف الخطر» لصالح مجلّة لايف، ومعاناته جرّاء ذلك؛ عدم اشتراكه، للمرّة الأولى منذ سكنه هناك، في الصيد السنوي للحجل قرب منزله في كيتشوم، أيداهو؛ إلحاحه المفاجئ على أن حقولاً اعتاد الاصطياد فيها أصبحت محظورة الآن. ومع تفاقم رهابه، أصبح مقتنعًا أن مكتب التحقيقات الفدرالي وضع أجهزة تنصّت في سيّارته وبيته وأن مصلحة الضرائب تدقّق في حسابه المصرفي.

في آخر زيارة قمت بها إلى كيتشوم، خرجت مع ماري وإرنست لتناول الطعام عشية رحيلي. بدا أن إرنست يستمتع بوقته ولكن في منتصف الوجبة، توتّر فجأة وهمس أن علينا مغادرة المطعم على الفور. سألته ماري عما يجري.

«عميلا مكتب التحقيق الفدرالي عند البار. هذا ما يجري».

في وقت لاحق من تلك الليلة أخذتني ماري جانبًا. كانت مضطربة جدًّا. قضى إرنست ساعات كل يوم مع نص عن أيام باريس، محاولاً الكتابة. ولكن كلّ ما تمكّن من فعله هو تقليب الصفحات. كان يتكلّم كثيرًا عن القضاء على نفسه ويقف أحيانًا عند رف الأسلحة ممسكاً أحد مسدّساته ومحدّقًا من النافذة. بعد الكثير من الإلحاح، أقنعه طبيبه في كيتشوم بدخول قسم الطب النفسي في مستشفى سانت ماري تحت اسم مستعار، وقام أطباؤه من مايو كلينيك بإجراء سلسلة من الصدمات الكهربائية عليه.

اتصل بي من الهاتف في الرواق خارج غرفته.

بدا في كامل قدراته، إلّا أنّ صوته حمل حماسة متكلّفة لم تكن في مكانها. لم تتغيّر أوهامه أو تخفّ: هناك أجهزة تنصّت في غرفته؛ هناك جهاز تنصّت في هاتفه؛ اشتبه بأن أحد الأطباء عميل فدرالي. كنتُ آملُ أن يخفف العلاج من تركيزه على لائحة الأعمال المجحفة تلك، ولكن، لسوء الحظ، أظهر ذلك الاتصال الهاتفي أنها إنْ كانت تغيّرت، فقد اشتدّت.

بعد خضوعه لسلسلة من الصدمات الكهربائية، بالإضافة إلى العديد من الجلسات مع الأطباء النفسيين، زرته لأول مرة في طريقي إلى هوليوود، آملاً من جديد أن تكون أوهامه قد خفّت. ولكن لا؛ كانت الوساوس القهريّة ذاتها لا تزال تتسلّط عليه.

ثم على نحو لا يمكن تصديقه، سمح أطباء مايو بخروج إرنست من المستشفى بعد وقت قصير من زيارتي. اتصل بي في هوليوود ليخبرني عن مدى سعادته لعودته إلى بيته في ميتشوم وإلى العمل أيضًا. أخبرني أنه ذهب للصيد في اليوم الذي أعقب عودته وأن هناك ثماني بطّات برّية وبطّتين نهريّتين، معلّقة الآن فوق كومة الحطب خارج نافذة المطبخ.

غير أن هذا الودّ والأنس كانا قصيري الأمد. فسرعان ما وجدت مخاوفه القديمة طريقها إليه من جديد، بل عادت أكثر شدّة في الواقع. حاول الانتحار مرّتين باستخدام مسدس من رفّ أسلحته ولم يُمنع من ذلك إلاّ بتدخّل جسدي قوي. في رحلة عودته بالطائرة إلى سانت ماري، وبالرغم من أنه أُعطي جرعة كبيرة من المسكّنات، صارع للقفز من الطائرة. عنما توقّفَتْ الطائرة في كاسبار، وايومينغ لإجراء تصليحات، حاول الدخول في إحدى المراوح أثناء دورانها.

عند وصولي إلى ضواحي روشستر وأنا أقود سيّارة الشيفروليه المستأجرة في ذلك اليوم من حزيران/يونيو 1961، كنت قلِقًا على حالة إرنست. تأمّلتُ أن تكون آخر سلسلة من الصدمات الكهربائية، بالإضافة إلى الجلسات المعجّلة مع الأطباء النفسيين من مايو كلينيك، قد أزالت حالات رهابه، أو، على الأقل، خفّفت من استحواذها عليه.

سجّلتُ وصولي في الفندق وذهبت مباشرةً إلى المستشفى. فتحت لي رئيسة الممرّضات باب إرنست بالمفتاح، وذلك بذاته نذير سوء. كانت الغرفة صغيرة، لكنّها مزوّدة بنافذة كبيرة تسمح بدخول قدر كبير من أشعة الشمس. لم توجد فيها أي زهور، وكانت حيطانها مُجرّدة. على طاولة بجانب السرير، ثلاثة كتب موضوعة أحدها فوق الآخر، وإلى جانب الطاولة، كرسي معدني مستقيم الظهر. وعلى النافذة مُدّت قضبان معدنية أفقيًا.

وجدتُ إرنست واقفًا عند طاولة المستشفى التي نُصِبت له مكتباً، مواجهًا النافذة، مديرًا ظهره للباب. كان يرتدي روب حمّامه الصوفي الأحمر القديم (أطلقت عليه ماري اسم روب الإمبراطور)، وقد ثبّته عند الخصر بحزام جلدي مهترىء له إبزيم نُقش عليه بالألمانية "Gott Mit Uns" (الله معنا)، وهو حزام أخذه من جندي ألماني قتيل في معركة غابة هورتغن في الحرب العالمية الثانية، وينتعل حذاءه الهندي البالي المفضّل، وفوق عينيه قبعة تنس بيضاء متّسخة. كانت لحيته شعثة وبدا أنه خسر مقداراً كبيرًا من وزنه.

«سيّد همنغواي، ضيفك هنا»، أعلنت الممرضة.

استدار إرنست؛ بقيت نظرة المفاجأة على وجهه للحظة ثم حلّت محلّها ابتسامة عريضة بعدما تعرّف إليّ. اقترب للترحيب بي، نازعًا قبعته عن رأسه. أخذني بالأحضان وربّت كلّ منا على ظهر الآخر على الطريقة الإسبانية. كان مسرورًا حقًّا بقدومي. بدا مُوهَنًا، وكأن الرجل الذي كانه في الماضي قد اختفى والرجل الواقف أمامي ليس سوى علامة تشير إلى ما كان عليه في السابق.

«هوتش، مرحبًا بك في "نِفَر نِفَر لاند"، حيث يفتّشونك ويقفلون الباب عليك، وليس لديهم اللياقة ليأتمنوك على أداة غير حادة»، قال إرنست.

كانت الممرّضة واقفة عند الباب.

«أيتها الممرّضة سوزان»، تابع إرنست وهو يقدّمني لها. «هذا إل بيكاس، مصارع الثيران الشهير. بيكاس، هذه سوزان، التي تمسك بمفتاح قلبي».

أضحكنا ذلك نحن الاثنين.

أعطيتها علبة كافيار أحضرتها لإرنست لتحتفظ بها في الثلاّجة.

جلست أنا وإرنست لبعض الوقت، هو على السرير وأنا على الكرسي. في البداية، بدا وكأنه بكامل قواه العقلية، لكنه لسوء الحظ عاد يكرر قصصه القديمة الكئيبة: هناك أجهزة تنصّت في الغرفة وكذلك في الهاتف خارج الباب؛ تذمّر من الفقر؛ اتهامات ضد المصرفي الذي يتعامل معه وضد محاميه وطبيبه في كيتشوم، وجميع الأشخاص الذين يعتنون بممتلكاته أو أعماله؛ قلقٌ من عدم اقتنائه ملابس مناسبة؛ اضطراب شديد بخصوص ضرائب وهمية.

كان هناك الكثير من التكرار. وقفت، مصمّمًا على توجيه تركيزه بعيدًا عن الشكاوى ذاتها التي استبدّت به عندما زرته أثناء وجوده سابقًا في المستشفى. كان واضحاً أن العلاج بالصدمة الكهربائية لم يؤثّر فيه. مشيتُ إلى الطاولة وسألته عمّا يكتب.

«باريس».

كان يشير إلى انطباعاته عن باريس وعن بعض الأشخاص الذين تعرّف إليهم عندما ذهب إلى هناك لأول مرة في أوائل العشرينات ليعيش مع زوجته الأولى هادلي.

«وكيف تجري الأمور؟».

«هذا أسوأ ما في الأمر. لا أستطيع إنهاء الكتاب. لا أستطيع. جلست إلى هذه الطاولة الملعونة يومًا بعد يوم بعد يوم. كل ما أحتاجه هو... ربما جملة، ربما أكثر، لا أعرف، ولا أستطيع العثور عليه. لا شيء، هل تفهم؟ كتبت إلى سكريبنر لألغي الكتاب. من المفروض أن ينتهي في فصل الخريف ولكن كان عليّ أن ألغيه بسرعة».

سألته إن كانت هذه هي النصوص نفسها التي سبق أن قرأتُها من صندوق فندق الريتز.

أجاب أنها هي بالإضافة إلى نص أخير، كان الأهم بينها.

«لكن تلك النصوص هي أروع ما يمكن أن يكتبه أحد عن باريس»، قلتُ له.

في إحدى رحلاتنا إلى باريس، أثناء إقامتنا في الريتز (ربح فريق همهتش وقتها سباق حواجز في أوتويّ جنينا منها 27 مقابل 1)، تناولنا الغداء في أحد الأيام مع تشارلز ريتز، الذي خلف والده سيزار. أخبر تشارلز إرنست أنهم عثروا، أثناء تجديد منطقة التخزين في الفندق مؤخّرًا، على صندوق لويس فيتون أودعه إرنست هناك في الثلاثينات. كان صندوقًا صنعه فيتون بنفسه من أجل إرنست، الذي سُرّ جدًا باستعادته. فتحناه في مكتب تشارلز. من ضمن محتوياته، كان هناك عدد من الدفاتر المدرسية الزرقاء كتب فيها إرنست عن باريس في العشرينات وعن الأشخاص الذين عرفهم خلال سنواته الأولى هناك. أعطاني إرنست تلك النصوص الأدبية لأقرأها؛ كانت رائعة، شاعرية، عميقة، قاسية، أبدية، مختلفة عمّا كتبه أي شخص يومًا عن باريس وعن معاصري إرنست المذهلين الذين عاشوا في فترة العشرينات.

طرقت الممرضة سوزان الباب ودخلت. قالت إن طبيب إرنست يريده لبعض التحاليل وأنه لن يتأخّر. أخذ إرنست حزمة من الأوراق عن مكتبه المرتَجَل ومدّها لي كي أقرأها حتى يعود. أخبرني أنه فصل لم أقرأه، الفصل الذي سيختتم الكتاب به، أهم فصل.

سحبت الكرسي إلى النافذة وبدأت قراءة النص المكتوب باليد، الذي تركه إرنست معي بعنوان «لا نهاية لباريس». كان مختلفًا عن أي من النصوص الأخرى التي قرأتها في فندق الريتز سابقًا، والتي ركّزت على ضواحي باريس ومعارف إرنست آنذاك: جيرترود ستاين، سيلفيا بيتش (تاجرة كتب وناشرة أميركية المولد)، فورد مادوكس فورد، إزرا باوند، وسكوت فيتزجيرالد، على سبيل المثال لا الحصر. هذا النص الذي أقرأه الآن معدٌّ بشكل واضح ليكون خاتمة الكتاب؛ وما جعله مختلفًا هو أنه كُتب تحيةً لسنواته الأولى الشاقة والرائعة في باريس ومرثاةً للنتيجة التي وصل إليها، وما تسبب بها.

بالإجمال، كان النص إعلان حبّ متّقد موجّهًا إلى زوجته الأولى هادلي، إلى ذكراها في شقّتهما في الدور الرابع من مبنى في شارع كاردينال - لوموان، ثم في المكان الذي عاشا فيه مع طفلهما الصغير بَمبي، 113 شارع نوتر- دام- دي- شان، في الدور الثاني، فوق منشرة في الفناء، وكيف قامت هادلي، وهي متدثّرة بالكنزات الصوفية، بالعزف على بيانو قديم استأجره لها إرنست في قبو معمل المعجنات المحلّي الشديد البرودة.

كتب إرنست في ذلك الفصل بمتعة شديدة عن مغامرات التزلّج مع هادلي، في شرونز في فولاربرغ، النمسا، حيث تعلّما التزلّج، وحيث كان للغرف في نُزل تاوب نوافذ كبيرة وأسرّة واسعة مع بطانيّات دافئة وأغطية محشوة بالريش، وحيث قدّم النُّزُل وجبات فطور رائعة تشمل أكوابًا كبيرة من القهوة، وخبزًا طازجًا ومربّى الفواكه، والبيض، ولحم الخنزير الشهي؛ وعن مادلنر-هاوس، النُّزُل القديم الجميل حيث ناما متلاصقين في سرير كبير تحت لحاف محشو بالريش والنافذة مفتوحة والنجوم قريبة.

لكن في منتصف النص، حوّل إرنست دفة الحديث وتطرّق إلى السنوات الرومانسية الأولى مع هادلي، عندما كانا فقيرين تغمرهما السعادة، أردف بوصف ما حدث لحياتهما المثالية عندما ظهر الأثرياء وحاشيتهم، وهي حياة أبعد ما تكون عن هذه الطائفة من البشر. كتب إرنست أنه حين يكون هناك اثنان يحب أحدهما الآخر فسينجذب إليهما الأغنياء، إلا أنه وهادلي كانا ساذجين ولم يعرفا كيف يحميان أنفسهما. سُحر إرنست بهؤلاء الأغنياء واعترف أنه كان غبيًّا وكأنه كلب مدرّب للمساعدة على صيد الطيور، يخرج مع أي شخص يحمل بندقية.

والأهم، كان هناك شخص غني آخر، امرأة غير متزوّجة أرادت الحصول على إرنست، فصادقت هادلي لتتسلّل إلى حياتهما وتدمّر زواجهما. اعترف إرنست أن اهتمام هاتين المرأتين المتزامن به أغواه، وأنه، لحظّه التعس، كان مغرمًا بهما معًا.

قبل أن يضع حدًّا لحياته، كان من المهم بالنسبة إليه أن تشرح كلماته الأخيرة الألم الذي سبّبه لنفسه عندما ترك حبّ حياته الحقيقي الوحيد يفلت من يده. لقد كانت مأساة حبّه لامرأتين في الوقت نفسه مصدر معاناة وعذاب طوال حياته. بعد تعرّضه لتجربة الموت الوشيك في حادث تحطّم الطائرة، قرّر أن يعيش مجدّدًا تلك الأيام الخطيرة التي استنزفته في العشرينات، عندما ذهب إلى باريس للمرة الأولى، والتي محت متعة نشر روايته الأولى «الشمس تشرق أيضًا». عاش إرنست تلك السنوات مجدّدًا وهو يصفها لي، ووجد في سرد القصة نوعًا من القبول بالخاتمة. لكن، طوال سني حياته، كانت مأساة يتعذّر إصلاحها، مأساة لم يتمكّن قط من التغلّب عليها، لا من خلال الشهرة، ولا المديح، ولا ثمار العبقرية.

قرأت الفصل مرّتين وتركته يترسّخ فيّ، بينما كان إرنست مع طبيبه.

في تلخيصه لسنواته الباريسية - الناس، الأماكن، الانتكاسات، الانتصارات، الإنجازات، خيبات الأمل، الذكريات الموحية عن الحياة مع هادلي - تفاجأت لإغفاله الكثير من الأحداث التي تكشف حقيقة الوضع، مثل تعليق زواجه الذي دام مئة يوم والذي كان قد أخبرني عنه ذات مرّة. ربما جعل ذهنه المضطهد ومشقّته في الكتابة من المستحيل عليه القيام بسرد رواية كاملة للأحداث، أو ربما كان في نيّته أن أصبح أنا الأمين على نتيجة حبه المأساوي لامرأتين في نفس الوقت، النكبة التي لم ينجح قط في تخليص نفسه منها.

سمعت طرقة على الباب ثم دخلت الممرضة سوزان لتخبرني أن اختبارات ضغط الدم ستستغرق بعض الوقت وإن كنت أفضّل الانتظار في الردهة المريحة، فستحضر من أجلي. قلت لها إني أفضّل الانتظار حيث أنا.

جلست هناك عند النافذة والفصل الأخير في حجري وبدأت أفكّر في حادث تحطّم الطائرة الذي قادني لمقابلة إرنست في فندق غريتي بالاس في مدينة البندقية عام 1954، أو في الواقع حادثي التحطّم وليس حادثاً واحداً.

الفصل الثاني

موعد في فندق غريتي بالاس
في مدينة البندقية

صباح يوم 25 كانون الثاني/يناير 1954، انتشر خبر بسرعة في جميع أنحاء العالم، مفاده أن إرنست همنغواي وزوجته ماري قد لقيا حتفهما في حادث تحطّم طائرة في الأدغال الكثيفة قرب شلالات مورتشيزون في أوغندا، ما أطلق موجة من الحداد والنعي حول العالم. لكن أخبار المأساة سرعان ما حل محلّها خبر يقول إن إرنست خرج فجأة، بأعجوبة، من أدغال بوتيابه حاملاً بعض الموز وزجاجة جِنّ غوردون. أفادت بعدها وكالة أسوشياتد برس أن إرنست صرّح للمراسلين الصحفيين المذهولين الذين هرعوا لإجراء مقابلة معه قائلاً: «حظي يسير على ما يُرام».

ولكن، بعد ذلك ببضع ساعات، لم يَسِرْ حظه على ما يُرام. أُرسِلت طائرة إنقاذ من طراز دي هافيلاند رابيد، وهي طائرة ذات سطحين من فترة الثلاثينات مصنوعة من الخشب، إلى موقع الحادث لنقل إرنست وماري إلى مقرّهما في كينيا، لكن الطائرة تحطّمت عند الإقلاع واندلعت فيها النيران بعد انفجارها؛ ذلك الحادث الثاني هو الذي أثّر في إرنست.

أرسلتُ العديد من البرقيات محاولاً الاتصال به وتلقّيت في النهاية برقية تطلب مني الاتصال به هاتفيًا في فندق غريتي بالاس في البندقية. كنتُ حينها في لاهاي في مهمة لحساب إحدى المجلّات وأجريتُ خلالها مقابلة مع الملكة بياتريس وعرّافتها، التي كانت الملكة تستشيرها لإرشادها.

هاتفت إرنست فألحّ عليّ بإنهاء اللقاء الملكي والحضور إلى فندق غريتي. «لديّ سيارة لانسيا جديدة وسائق محترف ماهر ليعبر بنا إلى الجهة الأخرى من الألب ويأخذنا على طول الكورنيش إلى بامبلونا لنحضر فيريا سان فيرمين»، أخبرني إرنست. «أودّ رفقتك في الرحلة. لقد أنهكتني تلك الطائرات الورقية التي تسقط في جميع أنحاء أفريقيا».

كثيرًا ما اتصل بي في الماضي بشأن رحلات ممتعة إلى وجهات مرغوبة، ولكن هذه المرة بدا الأمر شخصياً. كما بدا إرنست بدا خجولاً.

عندما وصلت إلى غرفة إرنست في فندق غريتي، وجدتُه جالسًا في كرسيّ قرب النافذة، وقبعة التنس في مكانها المعتاد، يقرأ نعيه في الصحف العالمية المتراكمة على المكتب بجانبه. وقفت للحظة عند الباب المفتوح، مصدومًا من هيئته. كنت قد رأيته آخر مرّة في نيويورك، في خريف عام

1953، قبل وقت قصير من سفره إلى أفريقيا. ما صدمني هو مدى هرمه خلال الأشهر الخمسة المنصرمة. ما تبقّى من شعره (وكان قد احترق معظمه) تحوّل لونه الداكن إلى أبيض، حاله حال لحيته التي سفعتها النار، وبدا أضعف إلى حدّ ما؛ لا أعني أضعف جسديًّا، ولكن بدا وكأنّ بعضًا من هالة الرجل الذي لا يُقهر قد غادره.

فجأةً، قرأ بصوتٍ عالٍ النعي الذي كان بين يديه: «الأديب المتهور الجريء!» وأطلق ضحكة صاخبة، ثم رفع كأس النبيذ عن الطاولة بجانبه وأفرغها من محتواها.

رآني عندها، وعلت وجهه ابتسامة عريضة وأشار إليّ لأساعده على الوقوف من كرسيّه. «أشعر وكأني مخلوق يصعد من القاع».

«كيف حالك يا بابا؟» سألته. «أعني المعلومات الحقّ». كان ذلك تعبيرًا مفضّلًا لديه يشير إلى التمييز بين الحقائق والتلميح.

«الذراع اليمنى والكتف مخلوعتان»، أجابني. «الكِلْيَة تمزّقت، الظهر ذهب إلى الجحيم، الوجه، البطن، اليد، خصوصًا اليد، كلّها سفعتها نيران الهافيلاند. الرئتان محروقتان من البخار. تعالَ، سأريك الدليل بالألوان».

قادني إلى الحمّام. على طاولة في الزاوية بين حوض الاستحمام والمغسلة، اصطفّت نصف دزّينة من الأكواب تحتوي كلها على البول. رفع إرنست أحدها لتظهر محتوياته الداكنة في الضوء، قائلاً، «لم أستطع التبوّل ليومين بسبب انسداد في مكان ما بخلايا الكِلْيَة. انظر إليها تطفو كأعواد أسنان. اللون يخيفني، كلون عصير الخوخ. الطبيب على السفينة التي حملتني إلى هنا من أفريقيا كان متمكّنًا. أعطاني شيئًا للكِلى، قصّ الجلد الميت من الحروق. إنه طبيب رفيع المستوى، قال إنه كان من المفترض أن أموت في تحطّم الطائرة. وقال إني قد أموت الآن أيضًا. وضعني على نظام حِميةٍ صارم. في الحقيقة، خفت جدًا من أحد أعضاء شركتنا عندما تحطّمت طائرة دي هافيلاند واشتعلت فيها النيران. كنتُ في الجزء الخلفي وماري في المقدّمة مع الطيّار، روي مارش. نجحا في الخروج، لكنّ النار ألهبت الباب المعدني الخلفي، الذي كان مثنيًّا ومحطّمًا. اختنقتُ من الدخان؛ وفوق ذلك، لم يكن هناك مكان كافٍ للوصول إلى الباب العالق ودفعه إلى الخارج. في تلك اللحظة بالذات، شعرت أن ساعتي دنت. وقعت في مآزق من قبل؛ الاصطدام

بقوّة ببرج الماء في لندن بعد انقطاع الكهرباء، وقد طرحني ذلك أرضًا وشقّ رأسي؛ حوادث تحطّم السيّارات في أيداهو التي كسّرت عظامي؛ الضربة المباشرة في الخندق في فوسّالتا، وغيرها. لكني شعرت دائمًا أني سأنجو وليذهب ملاك الموت البغيض ومنجله إلى الجحيم. ولكن هذه المرّة، وأنا أُقلى في علبة السردين تلك، مصابًا في جميع أنحاء جسمي، فكّرت أنها النهاية؛ لقد صلبوني وأضرموا النار. ولكن بطريقة ما، أزلت ما اعترض طريقي وأمّنت فسحة كافية للوصول إلى الباب المثني العالق، وبكتفي اليسرى السليمة ورأسي، تمكّنت من فتحه بالقوّة بما يكفي لأحشر نفسي في الفتحة وأخرج.

«وقفنا هناك عاجزين، نراقب الطائرة تحترق. كان الدخان ينبعث من ثيابي. تنبّهتُ لعدة ملاحظات علمية قد تثير اهتمام دارسي علم الكحول. أول ما لاحظته هو أربع فرقعات صغيرة نَسبتُها لزجاجات بيرة كالسبرغ الأربع التي كانت معنا. ثم حدثت فرقعة أقوى، نسبتُها لزجاجة الـغراند ماكنيش. لكن الدويّ الحقيقي الوحيد صدر من زجاجة جِن غوردون. كانت زجاجة غير مفتوحة لها سدادة معدنية، بينما كانت زجاجة الـغراند ماكنيش مسدودة بفلّينة، بالإضافة إلى أننا قد شربنا نصفها، لكن زجاجة الغوردون كان لها قوة حقيقية».

عاد إلى مقعده وسكب كأسين من الشمبانيا من زجاجة موضوعة في دلو ثلجٍ فضيّ على طاولة صغيرة.

أخبرني أن قراءة نشرات النعي التي كُتبت من أجله جعلته يشعر بتحسّن، وأما الآن فقد تكلّم معي بصراحة حول مدى شعوره بالإرهاق... كتم دائمًا الأشياء التي سيكتب عنها، رصيداً مخزّناً، ضمانة ضد انقطاع الوحي... ولكن نظراً للشعور الذي كان يسيطر عليه الآن، فقد ساوره الاعتقاد بأنهم قد أنقصوا عمره، وكان سيخبرني بعضاً من ذلك المحتوى الكتابي ليكون هناك من يعلم به إن لم ينتهِ هو بالكتابة عنه، «مثل المئة يوم. هل تعرف عن المئة يوم؟»

قلتُ إني لا أعرف.

«لا أقصد أن أبدو كئيبًا، ولكن كل مرّة تحصل فيها على بوليصة تأمين، فذلك فعل كآبة، أليس كذلك؟ أما زلت تحتفظ بملاحظاتك؟»

قلت إني مازلت أحتفظ بها، وبالأشرطة.

«وأنا لديّ ملاحظاتي. نحن في وضع جيد».

كان إرنست قد حجز طاولة للعشاء في قاعة الطعام التاريخية في فندق غريتي، لكنّه قال إنه يشعر بعدم الثبات كثيرًا، فلن يتمكّن من تناول العشاء في مكانٍ عام، لذا اختار الطلب من قائمة طعام خدمة الغرف. كانت غرفة كبيرة ذات نوافذ مقنطرة عالية تواجه القناة الكبيرة، مفروشة بشكل جميل بأثاث بندقي قديم، لذا فإن تناول الطعام عند تلك النوافذ، والزوارق تمرُّ من أمامك، لم يكن عبئًا بالتأكيد.

طلب إرنست كبد عجل (فيغاتو ألّا فنسيانا)، لأنه يساعد على تجديد القوى، حسب قوله، وزجاجة نبيذ فالبوليشيلا سوبريوري، مُشيرًا إلى النادل أن يسكبها لنا فورًا دون أن ينتظر حتى يتهوّى النبيذ. «النبيذ الأحمر الإيطالي لا يحتاج إلى الأكسجين»، قال إرنست، «لقد اكتسبتُ هذا الكمّ الصغير من حكمة الإله باخوس من فيتزجيرالد».

«لقد أخذتَ الكثير من فيتزجيرالد، أليس كذلك؟» قلت.

«أخذتُ وأعطيت»، ردّ إرنست. «التقيته للمرة الأولى في باريس في حانة دينغو. قدّم لي نفسه، وكنت أعرف من يكون طبعًا. قصصه القصيرة في جريدة ساترداي إيفننغ بوست، إحداها، «ماسة كبيرة كالريتز»، قصة رهيبة. كان سكوت يحب الريتز كثيرًا ولديه مكانه المعتاد في غرفة البار الرئيسية. دعاني أحيانًا لتناول المشروب، فكان عليّ أن أهندم جاكيتي القديمة وربطة عنقي الوحيدة الملتفّة والملولبة لدرجة أنها تصلحُ لفتح الزجاجات. لم يتصادق سكوت مع الكتّاب الآخرين الذين عاشوا في باريس حينها، مثل إزرا باوند ودوس باسوس وآرشيبالد ماكليش، لكنه اعتبر نفسه مرشدًا ومعلّمًا. كان سكوت يدنو من الثلاثين، وذلك برأيه نهاية الطريق، وأظن أنه اعتبرني مشروع تعويض محتملاً، لكني لم أعرف عن ماذا، لأنه رسّخ اسمه مع «الجميلة والملعون» و«غاتسبي العظيم»، الرواية التي نُشرت قبل ذلك بفترة قصيرة. طلب الاطلاع على بعض قصصي القصيرة، رغم أنها كانت قد رُفضت رفضاً قاطعاً.

«شعرت بالإحراج لإعطائها لشخصٍ بمثل شهرته، ولكن بعد أن قرأها، قال إن إحداها، «خمسون ألفاً»، جيّدة جدًّا، ولكنها ستصبح أفضل إن حذفت الصفحة الأولى وبدأت من الصفحة

الثانية، فالقصة ستصبح أقوى بهذه الطريقة. فكّرت في الأمر ووافقت على أنه من أجل البدء بالقصة، فخير الكلام ما قلّ ودلّ. أخبرني سكوت أنه سيرسلها إلى ناشره ماكس بركنز في دار نشر سكرايبنر إن لم أمانع. كان قد كتب له عني وأخبره أنه يودّ منه الاطلاع على كتاباتي. أحضر لي سكوت نسخة من كتابه الجديد «غاتسبي العظيم» آملاً أن يعجبني.

«كان رأيي أنه أحد أفضل الكتب التي كُتبت منذ وقت بعيد، وهذا ما قلته له في الواقع. بالرغم من أنه حقق شهرة كبيرة جدًّا وأنا لم أثبت نفسي بعد، كان هناك حس بوجود رابطة بيننا منذ البداية، حس بالأخوة، حق تدخّل أحدنا في حياة الآخر، كما لو أن كلًّا منا مسؤول بشكلٍ ما عن عثرات الآخر وآثامه.

«أُعجب ماكس بركنز بقصة «خمسون ألفاً» وساعد على نشرها في مجلّة أتلانتيك مونثلي، مقابل مبلغ سخي بلغ ثلاثمئة وخمسين دولارًا، ما أمّن حذاءً شتويًا لهادلي وزيارات منتظمة إلى الجزّار.

«أراد سكوت أن نقابل زيلدا ودعانا إلى الغداء في شقّتهما في شارع دي تيلسيت، وهو مكان مظلم لا حياة فيه. شعرتُ أنا وهادلي بالنفور من زيلدا، التي بدت مصمّمة على حشر تعليقات غير مرتبطة بالحوار. تكلّمتْ عن مدى تكريس سكوت نفسه للكتابة بامتعاض لا بدعم، مبديةً غيرةً من أوراق الكتابة، كما لو أنها عشيقة مغرية.

«قدّمني سكوت إلى بعض أفراد مجموعته الذين شاركوه مغامراته في الشرب. كانت ليدي داف توايسدن من بين المفضّلين لديه، وهي أشبه بشخصية ضلّت طريقها، مأخوذة مباشرة من رواية إنجليزية قديرة. كان مظهرها وأناقتها مبتكرين، ويعلم الله أن كلامها وقدرتها على الشرب كذلك. اعتمرت قبعة رجّالية مائلة فوق شعرها الأشقر المصفّف، وارتدت بدلة من التويد جعلتها تبدو مغرية بطريقة ما. كانت منفصلة عن سير روجر توماس توايسدن، البارون العاشر، وحسب قولها، الضابط الساديّ الصارم. أذلّها أينما ذهبا، انتقد بازدراء شكلها وعائلتها وذكاءها وثقافتها. أخبرها أنه لا يعرف لماذا تزوّجها. ومع ذلك لا يريد الطلاق. يشرب حتى يصبح لونه أرجوانياً في مزرعته الهائلة، يقيم حفلات ينفق عليها بسخاء، في كل مرّة هناك امرأة مختلفة كمضيفة، يدّعي أنه لا يعلم أين هي أو إن كانت موجودة أصلاً. «لا أكترث مطلقًا»، قالت لادي داف، ما دامت تحصل على

راتب شهري، مع أنه لا يكفي لنهاية الشهر. المذلّة مؤلمة، لكنّ هارولد وبات يعشقانها. قالت إنها بحاجة إلى ذلك، وإنهما يكمّلان ما ينقصها».

سألت إرنست عن هارولد وبات فوضّح لي أن هارولد لويب خريج جامعة برينستون ومن عائلة ثرية جدًا من نيويورك، وكان في فريقيّ الملاكمة والمصارعة في الجامعة. كانت لديه طموحات أدبية، حتى أنه أطلق مجلّة صغيرة في باريس اسمها «بروم». مخلص بشراسة لداف، غيور جدًا من بات، الذي يتناوب في قضاء إجازات نهاية الأسبوع مع داف.

أضاف إرنست أن بات غوثري، نسيب داف البعيد، أسكتلندي نزق يبدو وكأنه في حالة دائمة من الثمل، ويعطي داف بانتظام مالاً من مصروفه الخاص.

قال إرنست إن ثلاثتهم كانوا لا ينفصلون أبدًا بالرغم من أن بات وهارولد كانا في صدام مستمر. «كثيرًا ما دعوني للانضمام إليهم بعد انتهائي من الكتابة. كنت أكتب صباحًا إما على طاولة في كلوزري دي ليلاس، وهو مقهى رائق قرب شقّتنا، وإما في غرفة صغيرة استأجرتها، في الدور السادس من فندق قديم، لألتقيهم بعدها في مطعم سيليكت، مكانهم المفضّل. كان فيتزجيرالد وزوجته يوجهان الدعوة للعشاء لثلاثتهم ولنا أحياناً، وفي إحدى المناسبات، لأختين هما بولين وجيني فايفر».

«إذن هكذا تعرّفت إلى بولين؟ ماذا كان رأيك بها؟».

«الانطباع الأول أنها قصيرة القامة، مسطّحة الصدر، ليست بمثل جاذبية أختها. كانت بولين قد جاءت منذ وقت قصير إلى باريس للعمل في مجلّة فوغ، وبدت وكأنها خرجت للتو من صفحاتها متّبعة آخر صيحات الموضة. شعر قصير مثل شعر الصبيان، وهي الموضة آنذاك، ثوب قصير بشراريب، عقود من اللؤلؤ، حليّ، شفتان مطليّتان بأحمر شفاه زاهٍ. قال إنها درست في دير راهبات في سانت لويس، على بعد بضعة أحياء من المكان الذي عاشت فيه هادلي.

«لم أفكّر في بولين، ولو مرّة، بعد ذلك العشاء. كانت هادلي المرأة الوحيدة التي لها أهمية في حياتي، بجسمها الممتلئ وصدرها المكتنز، وشعرها الطويل إلى كتفيها، وفساتينها ذات الأكمام الطويلة والتي تصل إلى كاحليها، مع القليل من الحلي أو الماكياج أو دونهما. كنت أعشق شكلها وإحساسي بها في السرير. هكذا مضت أمورنا. عاشت حياتها تحب الأشياء التي أحبها: التزلّج في النمسا، النزهات وتناول الطعام في ميدان الجري في سباق الخيل في أوتوي، السهر طوال الليل في سباقات الدرّاجات

في الفيلودروم، مدعّمين بسندويتشات وترمس قهوة، رحلات إلى القرى في الألب لمشاهدة «تور دي فرانس»، صيد السمك في نهر إيراتي، مصارعات الثيران في مدريد وبامبلونا، النزهات الطويلة سيرًا على الأقدام في الغابة السوداء.

«مع أني لم أفكر قط ببولين بعد ذلك اللقاء الأول، إلا أني اكتشفت فيما بعد أنها كانت تفكّر فيّ بجدّية، وتحوّلت تلك الأفكار إلى مخطّطات، ومكائد، وحيل، وتواطؤ».

سألته: «كيف دخلت حياتك؟».

«أظن أن الأمر بدأ بحديث أجرته بولين وجيني مع هادلي ذلك المساء في بيت فيتزجيرالد»، ردّ إرنست. «حدّثتهما هادلي عن ابننا بَمبي فسألتا إن كان بإمكانهما زيارتنا. وهذا ما فعلتاه. أحضرتا له هدايا من متجر الألعاب الأنيق في شارع سانت أونوريه. أصبحت بولين تحب رفقة هادلي ودعتها لتناول الشاي في فندق كريّون، ولحضور بعض عروض الأزياء، وأحضرت لها مجلّات موضة وكتبًا. كنت أرى بولين وجيني أحيانًا في حانة دينغو وأنا أحتسي المشروب مع سكوت أو دوس باسوس، وانضمّتا إلينا في بعض المرات. كانت جيني أكثر جاذبية بكثير من بولين، التي كانت أقصر قامة وصبيانية الشكل نوعًا ما. كانتا تعرفان أحدث الكلمات العامية الدارجة وتدخّنان السجائر من حاملتيّ سجائر عاجيّتين. تعوّدت جيني أن تحضر معها صديقة، لهذا كانت بعيدة المنال. تساءلت ما إذا كانت المَثْلَية سمة متناقلة في نفس العائلة. لم يكن لذلك أهمية. كانت الأختان ذكيّتين، سريعتي البديهة ومطّلعتين على كل جديد، لكني لم أكن مهتمًّا. كانت الحياة مع هادلي كاملة.

«كانتا تمرّان أحيانًا بمكان عملي في نهاية النهار، تلك الغرفة الصغيرة الفارغة التي استأجرتها في الدور الخامس، دون تدفئة، دون مصعد، دون أي شيء تقريبًا، في الفندق القديم المتداعي في شارع موفتار، وتقنعانني بتناول المشروب في مقهى قريب، لتدخلا المرح والذكاء والحيوية إلى يوم محبط وغير مثمر. بعد بعض الوقت، توقفت جيني عن الحضور وأخذت بولين تأتي وحدها. بدت أنيقة على آخر موضة، مرحة وكلّها إعجاب، الأمر الذي كان يمنحني شعورًا مريحًا بالتأكيد بعد يوم صعب. كانت تشعر بعاطفة حقيقية أو مزعومة تجاه بَمبي. زارته، واصطحبته إلى عروض «بونش وجودي» في حدائق تويلري، وعرضت أن تهتم به كلما أردتُ أنا

وهادلي الخروج، ولكن نظرًا إلى أننا كنا مفلسين، لم نقبل عرضها قط، إذ لم يتوفّر لدينا المال للذهاب إلى أي مكان.

«كانت بولين تدعونا إلى المطعم وتقترح أن تهتم مدبّرة منزلنا، ماري كوكوت، ببَمبي، لكنّ بولين عرفت أن هادلي تكره ترك بَمبي ليلاً وأنها بالتالي ستلحّ عليّ كي أخرج معها. كنت مفلسًا طبعًا لهذا كانت بولين تدفع الحساب كلّما ذهبت معها. كانت حذقة ومسلّية وكلّها رغبة، بغطرسة فتاة فاحشة الثراء. تقول: «بإمكاني الحصول على أي شيء أريده» ولا تقبل الرفض. امتلكت أسرة فايفر بلدة بيغوت في أركنساس، وامتلك والد بولين المصرف ومِحلج القطن والذرة والقمح وفول الصويا وغيرها من المواد التي ينتجها المزارعون المستأجرون منه، وكذلك سلسلة من المحلات التي تتضمّن صيدليّات، والله وحده يعلم ماذا أيضًا، ربما أركنساس بأسْرِها. أما عمّها غاس فكان يملك بقية المال الذي لم يملكه والدها؛ فهو صاحب عطر رتشارد هَدنات ومراهم سلون وكذلك وارنر للمستحضرات الصيدلية وغيرها. لم يكن لدى غاس أولاد وكان يدلّل بولين ويحقّق لها، أي شيء ترغب فيه، فكل ما عليها هو أن تطلب».

سألته كيف شعر وهو يرافق شخصًا فاحش الثراء بينما هو شديد الفقر.

استغرق بعض الوقت ليجيب. مشّط لحيته بأصابعه وأشاح نظره عني، كما لو أنه يستشير شيئًا بعيدًا. أضافت البقع المسفوعة على وجهه عدّة سنوات إلى مظهره.

«في تلك الفترة، لأكون صادقًا، على الأرجح أن ذلك أعجبني؛ الفقر مرض يشفيه دواء المال. أظن أني أحببت الطريقة التي أنفقته بها؛ ملابس مصمّمين مشهورين، سيّارات أجرة، مطاعم. فيما بعد، عندما وعيت الواقع، رأيت الأثرياء على حقيقتهم: آفة لعينة مثل الفطريات التي تقتل البندورة. وضعتُ الأمور في نصابها من تلك الناحية في «ثلوج كليمنجارو»، إلاّ أن المرض كان قد تقدّم بهاري، الذي أقعدته ساقه المصابة بالغرغرينا إلى حد يستحيل شفاؤه، فمات دون أن يُسامح الأثرياء. أعتقد أني لا أزال أشعر مثلما شعر هاري حيال الأثرياء في القصّة. وسيلازمني هذا الشعور دائمًا».

استدعى إرنست النادل وتحدّث معه عن أنواع النبيذ. واتفقا على نبيذ كيانتي مميّز.

سألني إرنست إن كنت قد حضرتُ فيريا في بامبلونا، مهرجان مصارعة الثيران السنوي الذي يكرّم القدّيس راعي البلدة.

قلت إني لم أذهب.

شرع يصف رحلة له إلى هناك مع ليدي داف توايسدن ومجموعتها، رحلة أصبحت نقطة تحوّل بالنسبة إلى حياته ككاتب وإلى حياته الأخرى. «كانت بامبلونا آنذاك على طبيعتها الحقيقية، قبل أن يفسدها السيّاح»، قال إرنست. «دفعني إغراء تلك الأيام العشرة مع داف ورفاقها إلى محاولة تسجيلها على الورق. بدأت بالكتابة بعد أن غادرنا بامبلونا بوقت قصير، وخلال الأسابيع الخمسة التالية انتابني شعور غامر، كما لو أني أعاني من حمّى تهدر في رأسي كل يوم، وتركتني فارغًا كقرن بازلاء نُزعت حبّاته. ولكن ما إن يأتي الصباح حتى أشعر أني مشحون من جديد وجاهز لمواجهة يوم جديد. كانت تلك الحمّى نار هشيم خارجة عن السيطرة رمتني بين فكّيّ بولين، التي بدأت تستضيفني لاحتساء المشروب في شقتها الجميلة في شارع بيكو، وهكذا بدأت الأمور.

«سمّيت الكتاب في البداية "فيَستا"، لكنّي غيّرته لاحقًا إلى "الشمس تشرق أيضًا". خلال تلك الأسابيع الخمسة، كتبت في أماكن مختلفة، واعدًا نفسي بتجنّب بولين عند عودتي إلى باريس، لكن حمّى الكتابة وإعادة الكتابة جعلتاني أنفتح عليها. أدمنتها، ومع أني أكره الاعتراف بذلك، أصبحتُ متعلّقًا بها مثل تعلّقي بهادلي».

أعاد ملء كأسه، أما أنا فلم أفعل.

«هل سبق لك أن أحببت امرأتين في الوقت نفسه؟».

أجبته أني لم أفعل.

«أنت محظوظ»، قال. «كان الأمر معقّدًا، مثل تلك المرة على الريفييرا. رحلتنا بالسيّارة إلى بامبلونا تجعلنا نعبر إلى الجهة الأخرى من الألب ثم نمرّ في الـغراند كورنيش وصولاً إلى أنتيب. سأريك الفيلا التي نزلنا فيها في كاب دو أنتيب، المكان الذي عانى فيه بَمبي من السعال الديكي. في الواقع، كانت هناك فيلّتان متجاورتان يفصل بينهما سياج حديدي مزخرف. الفيلا الأكبر حجمًا هي فيلا

سان لوي، حيث أقام آل ميرفي وضيوفهما؛ والفيلا الصغيرة فيلاّ باكيتا، حيث أقمنا نحن. هل تعرف آل ميرفي؟»

لم أكن أعرفهما.

شرح لي إرنست أن جيرالد وسارا ميرفي زوجان أميركيان شابان فاحشا الثراء يعيشان في باريس. كانا من هواة جمع المشاهير، خصوصًا الفنّانين والكتّاب. قال إرنست إنه تعرّف إليهما عن طريق فيتزجيرالد. أخبرني أنه لم يكن نفسُهُ مشهورًا طبعًا (لم تكن رواية «الشمس تشرق أيضًا» قد نُشرتْ بعد)، ولكن ذلك الشتاء كان الأبرد في باريس منذ سنوات عدة، واعتقدَ أن آل ميرفي أشفقا عليهما ووجّها إليهما دعوة للإقامة في الريفييرا، فأحضرا معهما ماري كوكوت للاعتناء ببَمبي، الذي كان يشكو من سعال مزعج مستمرّ.

«كان فيتزجيرالد وزوجته وجون دوس باسوس وآرشي وأدا ماكليش ضيوف آل ميرفي، واستمتعنا جميعًا بوقتنا على الشاطىء وبتناول العشاء معًا. ولكن بعد وصولنا بوقت قصير، ساء سعال بَمبي، ما جعل سارا ميرفي تقلق على أطفالها الصغار، فاستدعت طبيبًا اكتشف أن بَمبي مصاب بالسعال الديكي، فوُضعنا عندها نحن الثلاثة في الحجر الصحّي. بالطبع قطع ذلك أي زيارة لمنزل آل ميرفي، لكنّهم كانوا يأتون كلّ مساء عند الغروب إلى السياج، حاملين مشروباتهم ومقبّلاتهم، وكنّا نصرخ بعضنا لبعض، ونحن نقف على الشرفة. في نهاية المطاف، انتهت قمة السياج الشائكة مزينة بزجاجات نبيذ مقلوبة في حركة بدأها سكوت.

«كانت بولين تراسلني، تبعث برقيات لتضمن أن أُبقيها في فكري. كانت في عطلة ومقيمة هناك في فندق دانييلّي مع عمّها غاس وزوجته بياتريس، عندما كتبتُ لها وأخبرتها بمكان إقامتنا في الريفييرا وأننا تحت الحجر الصحّي بسبب السعال الديكي الذي أصاب بَمبي».

«ثم؟».

«قالت إنها اشتاقت إليّ، ولمّا كانت قد أُصيبت بالسعال الديكي في طفولتها فستأتي لزيارتنا، لأن لديها مناعة، وبإمكانها أن تقول إنها جاءت للمساعدة في الاعتناء ببَمبي».

«وأنت وافقت؟».

«هذا ما ندمت عليه - لم أطلب منها ألّا تأتي - ندمت ندماً بأربع قوائم وستة قرون حادّة».

وقف إرنست وذهب إلى الحمّام. عندما عاد استقرّ في كرسيّه وسكب مزيداً من النبيذ.

«بعد الحجر الصحي بوقت قصير، وصلت بولين فايفر. كنت قد أخبرت هادلي أنها ستأتي للمساعدة في رعاية بَمبي. أقامت بولين في غرفة بجانب غرفتنا وأمسكت فورًا بزمام الأمور. أحضرت قهوة الصباح والكرواسان إلى غرفتنا، جلست على حافة السرير بجانبي بينما تناولنا ثلاثتنا الفطور معًا. كنت متوتّرًا، لكنني كنت متحمّسًا لوجودها. ذهبت إلى الشاطىء معنا كل يوم، ومع أن هادلي كانت تعاني من إصابة في ظهرها بسبب حادث تعرّضت له في الطفولة، ألحّت بولين على محاولة تعليمها الغطس من مكان عالٍ. انتهى الأمر بهادلي المسكينة تعاني أيّامًا من ألم الظهر. صمّمت بولين بالقدر نفسه على تعليم هادلي لعب البريدج، غير أنه لم يكن هناك أمل في هادلي. الشيء الوحيد الذي استمتعت به هادلي هو رحلاتنا الطويلة على الدرّاجات الهوائية في فترة بعد الظهر في شوارع جوان-لي-بان.

«عندما رُفع الحجر الصحّي، أمضينا أمسياتنا عند آل ميرفي. بقيت بولين رغم أنّ بَمبي لم يعد يشهق.

وعندما انتهت مدّة العقد الذي استأجر به آل ميرفي فيلا باكيتا، حجزتُ غرفة في فندق دي لابينيد على الشاطىء، على مسافة قصيرة من مكاننا. أخذت بولين غرفة بجانب غرفتنا، وأقام بَمبي مع ماري في مكان صغير بجوار الفندق».

ظلّت بولين تعبّر عن امتنانها لهادلي لأنها سمحت لها بالبقاء مع عائلتنا. قالت إنه من الصعب لامرأة أميركية أن تكون وحدها في فرنسا، وإن هادلي مثل أخت لها، لكنّها...» ضحك إرنست... «لكنّها لم تتناول فطورها قط بجانب الأخت هادلي من السرير».

سألتُ إرنست إن اشتكت له هادلي من وجود بولين.

«نعم، شعرتْ أحيانًا بالانزعاج، إلاّ أن بولين ظلّت تقول إنها تأمل ألا تكون متطفّلة، وأشياء من ذلك القبيل، ما جعل هادلي تؤكّد لها أننا مسرورون بوجودها معنا. عندما أعود بالذاكرة إلى تلك

الفترة، أعتقد أني كنت مسرورًا لوجود امرأتين جذّابتين تهتمّان بي، ولكني في الوقت نفسه، لم أكن مرتاحًا بالتأكيد.

«تسلّلتُ في بعض الأحيان إلى مقهى صغير على الشاطىء مع سكوت لنستريح من المجتمعين في منزل آل ميرفي. في آخر مرة ذهبنا إلى ذلك المقهى، أسرّ لي سكوت لأول مرة بما كان يفكّر. قال إنه استطاع رؤية الأمر وهو يحدث منذ البداية. عرفت ما الذي كان سيقوله لكني تظاهرت بالغباء. «ماذا تعني؟ بداية ماذا؟» قال، «لديّ عينان. الطريقة التي تنظر بها إليك. تظلّ قربك. تعامل هادلي بلطف. والآن تأتي إلى هنا. هناك فخ تنصبه لك امرأة مغوية. عندما قدمت للمرة الأولى إلى باريس، انتشرت إشاعة أنها تبحث عن زوج».

«شعرت بالانزعاج لأنه ذكر الأمر، لكنّي كنت أيضًا توّاقًا للتحدّث عنه.

«قال سكوت: إنها تريدك لنفسها وستفعل أي شيء للحصول عليك.

«كنت صريحًا معه واعترفت له أني أحبهما كلتيهما.

«أخبرني سكوت أنه سيتحدث معي دون مواربة: ستدمّر زواجك إن لم تتخلّص منها.

«قلت له إني أريد ذلك حقًّا. لقد حاولت ولكن، اللعنة لم أستطع.

«غضب سكوت وقال إني أستطيع بالتأكيد وسيخبرني كيف. قل فقط، «بولين، أنت امرأة مدهشة، لكنّي أريد أن تخرجي من حياتي، لأنك إن لم تفعلي، سأخسر زوجتي وابني الصغير وحياتي كلها». لماذا تركت نفسك تقع في هذه الورطة؟

«ساذج، كل هذا ساذج. تظهر امرأة في قمة الجاذبية، تتودّد إلى هادلي، ترافقنا نحن الاثنين، تبدي اهتمامًا كبيرًا بي وبعملي، حرّة ومستعدّة للبقاء في رفقتي، للذهاب إلى أماكن مختلفة عندما تكون هادلي منشغلة ببَمبي؛ كلّها إشارات إلى أنها تريدني، لكنّي لا أتعرّف إلى أي منها. كل ما أراه هو أنه بعد يوم شاق جدًا أمضيه في الكتابة، هناك امرأتان في انتظاري، تمنحانني انتباههما، تهتمّان بي. امرأتان جذّابتان، ولكن بطريقتين مختلفتين. قلت لسكوت إني أحببت وجودهما قربي، فهو أمر مثير، يلهبني، وقبل أن أدرك ما يحدث، أصبحتُ مغرمًا بكلتيهما. ساذج جدًا، لم أشك قط أن بولين لم تكن هناك كامرأة عزباء تستمتع بوجودها مع عائلة، بل امرأة تريد أن تفرّقنا وتستأثر بي لنفسها.

ولكني الآن أحبهما كلتيهما. قد يجلب لي ذلك الحظ السيئ ولكني آمل ألّا يحدث ذلك. آمل أن نتمكّن من الاستمرار على المنوال نفسه.

«نصحني سكوت أن أنتبه لخطواتي فأنا أخطو على قشر البيض، واقتبس حكمة قديمة: الرجل الممزَّق بين امرأتين، يخسر الاثنتين في نهاية المطاف.

«قلت أجل، أنا ممزَّق بينهما، لكنّي بحاجة إليهما الاثنتين وأنوي الإبقاء عليهما، بطريقة ما.

«ردّ سكوت إني حقير لعين لا أعرف أي شيء عن النساء. أمسك بذراعي وجذبني إليه. رفع صوته: تخلّص منها! الآن! هنا! إنه حريق بثلاث صفّارات إنذار! الآن هو الوقت المناسب! أخبرها!

«أنهينا كأسينا وعُدنا إلى الفيلا للانضمام إلى الآخرين. تلك الليلة، فكّرت في التحدّث إلى بولين، وبدأت فعلاً، لكن، اللعنة، لم أستطع».

«إذن لم تأخذ بنصيحة فيتزجيرالد؟».

«أردت ذلك، ولكن ما حصل هو أني كنت أبتعد وأحاول تخليص نفسي منها، وأعتقد أني فعلت، لكن ما إن أعود إلى باريس حتى تبدأ بولين كل شيء من جديد. ولكن لتبديد شكوك هادلي، ظلّت بولين تدّعي أنها تهتم لأمرها. أحببت هادلي بصدق وأردت أن نعود إلى سابق عهدنا مرة أخرى، فقرّرت الابتعاد عن باريس وعن إغراء بولين. ذلك الشتاء، حزمنا أمتعتنا أنا وهادلي وذهبنا إلى شرونز [منتجع للتزلّج في النمسا] مع بَمبي. أقمنا في فندق تاوب؛ مقابل دولارين في اليوم لنا، نحن الثلاثة. كنت سأقطع علاقتي ببولين. ولكنها لحقت بنا إلى شرونز. أقامت في الفندق نفسه، وقالت إنها تريد تعلّم التزلّج، وإن كان بإمكاني إعطاءها بعض الدروس. لم يعجب ذلك هادلي لكنّها كانت ذات روح رياضية عالية. في الواقع، لم تكن بولين على الإطلاق بمثل براعة هادلي في التزلّج أو ركوب الخيل، أو الرماية، أو صيد السمك، أو أي شيء آخر.

«عندما اضطرّتْ للعودة إلى باريس لتغطية افتتاح حفل مجموعات الأزياء لحساب مجلة فانيتي فير، شعرتُ بالارتياح لظني أني، وقد أصبحت وحدي مع هادلي، قد أتمكّن من تمالك نفسي والتخلّص من الضغط الناتج عن حبهما هما الاثنتين.

«ولكن وصلت برقية من ماكس بركنز، محرر دار نشر سكرايبنر، تحمل خبرًا رائعًا وهو أنهم سينشرون رواية "الشمس تشرق أيضًا". سألني إن كان بإمكاني الذهاب إلى نيويورك لتوقيع العقود. انطلقت إلى باريس على الفور، وحجزت مكانًا على أول سفينة بعد ذلك بأربعة أيام. بقيت هادلي وبَمبي في شرونز وأخبرتهما أني سأرجع فور عودتي من نيويورك. نزلتُ في فندق فينيسيا، في مونبارناس.

«وصلت بولين في الدقيقة التي وطأت فيها قدمي أرض باريس. خلال تلك الأيام الأربعة، التصقت بي مثل اللبلاب على جدار؛ اصطحبتني إلى الملاهي الليلية والمطاعم الراقية المصنَّفة من قبل ميشلين وإلى أوبرا باريس. قضيت تلك الليالي الأربع في سريرها في شقّتها الجميلة في شارع بيكو إلى أن غادرت سفينتي إلى نيويورك».

استدعى إرنست نادل الطابق ليأتيه بزجاجة نبيذ بارولو. قال إن فيه فرح إيطاليا. كانت هناك قطعة كبيرة من جبن البارميزان في طبق قرب دلو الثلج، اقتطع منها إرنست قطعًا سميكة بسكين جيبه أكلناها مع النبيذ. عرفت من الطريقة التي حرّك بها ذراعيه لقطع الجبن وسكب النبيذ، أنه يتألّم.

قضم إرنست قطعًا صغيرة من الجبن ورشف نبيذه لبعض الوقت، ثم قال أخيرًا: «عندما عدت إلى باريس وعقد كتابي في جيبي، كان عليّ أن أذهب مباشرة إلى شرونز، حيث انتظرت هادلي وبَمبي طوال الأيام التسعة عشر التي غبتها. كان عليّ أن أستقل أول قطار من المحطة، إلا أن بولين قابلت قطار السفينة عندما وصلتُ إلى باريس. تركتُ ثلاثة قطارات تمضي لأبقى معها في شقّتها».

أغمض عينيه. ربما كان يرى نفسه آنذاك. مرّ الوقت. أصبح تنفّسه أعمق، فأدركت أنه استسلم للنوم.

الفصل الثالث

الافتراق في حانة هاري

جاء إرنست الى غرفتي في وقت متأخّر من صباح اليوم التالي، حاملاً معه صحيفة إنترناشيونال هيرالد تريبيون وعدّة صحف إنجليزية أخرى. قال إن لديه موعدًا مع طبيب شهير ليجري له فحصًا دقيقًا، من فروة رأسه المحمّصة إلى عضلة الشرج المرضوضة، ولكن إذا كان لا يزال واقفًا على قدميه، فقد نستطيع الذهاب إلى أحد أماكنه المفضّلة، حانة هاري، لتناول العشاء. كانت تلك في الحقيقة حانة شيبرياني، أما هاري فهو الرجل الإنجليزي الذي دعم شيبرياني عندما فتح الحانة منذ سنوات عدّة. أصبح المكان مشهورًا الآن بأطباقه الإيطالية بالإضافة إلى البلّيني. تعود معرفة إرنست بشيبرياني إلى فترة الحرب العالمية الأولى.

تعانقا فرحين ورافقنا شيبرياني إلى طاولة إرنست المفضّلة في إحدى الزوايا حيث، مثلما أشار إرنست، كان جانباه محجوبين جيدًا. سكب لنا شيبرياني، وهو رجل وسيم، مكتنز الجسم، ذو ابتسامة معدية، كؤوسًا من النبيذ الأحمر المتلألئ الذي جاء به من مزرعته.

بعدما تركنا ليقوم بعمله، حضر قبطان ليأخذ طلباتنا. طلب إرنست مجدّدًا فيغاتو ألّا فنزيانا (مثلما سيطلب في كل عشاء خلال رحلتنا)، واخترت أنا لنغويني ألّي فونغولي، ومحار البحر الأدرياتيكي الصغير جدًا وغير المعروف في أي مكان آخر.

«آسف أني غفوت ليلة البارحة»، قال إرنست. «أين كنّا؟».

«كنت قد فوّت عليك ثلاثة قطارات إلى شرونز لتبقى مع بولين في باريس».

«أجل، صحيح». أعاد ملء كأسه من زجاجة شيبرياني.

«عندما وصلت أخيرًا إلى محطة شرونز، كانت هادلي واقفة هناك، هادلي الجميلة، وبَمبي الصغير، مبحوح ومسفوع بأشعة الشمس التي تعرّض لها على الثلج. في تلك اللحظة تمنّيت لو أني متّ قبل أن أحبّ شخصًا آخر.

«قضيتُ أنا وهادلي أوقاتًا سعيدة ذلك الشتاء في شرونز، نتزلّج ونلعب البوكر، نغنّي ونشرب في الحانة مع سكّان المنطقة المحليين. جاء آل ميرفي لزيارتنا، وكذلك فعل دوس باسوس، وظننت أن الأمر قد سُوّي من تلقاء نفسه وأني عدت إلى ميناء الأمان. لم أردّ على أي من رسائلها.

«لكن، يا إلهي، ما إن عدنا إلى باريس في الربيع حتى رجعتُ إلى بولين، التي حرصتْ مجدّدًا على أن ينتهي بنا المطاف في سريرها. سار الأمر على هذا المنوال طوال فصل الربيع ذاك.

«عندما ظنّت بولين أن هادلي بدأت تشك بالأمر - كانت حذرة جدًا - قامت هي وشقيقتها جيني بدعوة هادلي إلى الذهاب معهما في رحلة بالسيّارة إلى شاتو فالي. فرحت هادلي بذلك، حيث أن الأماكن الوحيدة التي رافقتني إليها كانت إما لاصطياد السمك أو التزلّج أو الصيد. من المؤكد أني ما كنتُ لأذهب في رحلات لمجرّد التجوال في السيّارة والتحديق كالأبله إلى قصور قديمة.

«بينما كنّ في الرحلة، جهدتُ في العمل وانتهيت من مراجعة الكتاب، منقّحًا البروفات. أصبح الكتابُ الآن جاهزًا للنشر. شعرت بالحرية والسعادة. توقّعت أن تعود هادلي من رحلتها منتعشةً تشعر بالودّ والصداقة تجاه بولين، لكنّ أمرًا آخر كان بانتظاري. عندما سألتها عن الرحلة، قالت إن الأيام القليلة الأولى كانت جيّدة ولكن، بعد ذلك، أصبحت بولين نكِدة وعدوانية إلى حدّ ما، تقاطع محاولات هادلي للحديث. قالت هادلي إن ذلك أعطاها إحساسًا غير مريح حيالنا أنا وبولين. لهذا، واجهت هادلي جيني وسألتها إن كنتُ على علاقة ببولين. سألتْها: "هل وقعت بولين في حبّ إرنست؟" قالت هادلي إن جيني توتّرت وقالت إن بولين وإرنست صديقان حميمان واقتبست كلام جيني: "أعتقد أنهما يشعران بالكثير من الودّ أحدهما تجاه الآخر".

«قالت هادلي إنه كان يُفترض بها أن تعلم. وأنها بدأت تفكّر في عروض الأزياء التي أخذتها إليها بولين والألعاب التي قدّمتها لبَمبي، والطريقة التي تتعلّق بها بولين بكل كلمة تقولها. "عندما تضحك أنت، تضحك هي. عندما تبدي أنت استياءً، تصبح هي مستاءة مثلك، صديقة العائلة المثالية التي، كتعبير سامٍ على صداقتها مع الزوج... كم أنا ساذجة لأني لم أنتبه".

«بدأت هادلي تبكي وقالت إنها تريد أن تنقذ علاقتنا. سألتني إن كنت أستطيع تجاوز الأمر إذا أعطتني بعض الوقت، قالت إنه يجب التفكير بابننا. جعلتني أشعر بالغضب. قلت: إننا سعداء كما نحن. قلت: أنا أحبك ويجب ألّا يُحدث ذلك أي فرق. كنت أريد الحصول عليهما معًا، تمامًا مثلما هما، كلتيهما معًا. لم أكن أعرف الكثير عن النساء، أليس كذلك؟

«صمدت هادلي بعض الوقت، ولكن بعد بضعة أشهر، لم يعد الوضع على حاله بيننا. أخذنا نبتعد أحدنا عن الآخر. كنت أطلب منها ما هو فوق طاقتها. ونحن في بامبلونا مع آل ميرفي، قرّرنا

الانفصال عند عودتنا إلى باريس.

«تشاركنا مقصورة في القطار في طريق عودتنا إلى باريس، ونحن نعلم أننا عند وصولنا إلى محطّة ليون سيذهب كل منا في طريقه. كانت رحلة صعبة جدًّا. بالكاد تكلّمنا. كان هناك في المقصورة سيّدة أميركية في منتصف العمر، تسافر مع كناري في قفص، استأثرت بالجزء الأكبر من الكلام. شعرتُ بنوع من الدوار، كما لو أن لكمةً يسرى قويّة قد طرحتني أرضًا وأحاول تبديد التشويش في رأسي. لم أستطع حمل عقلي على القبول بحقيقة أننا، بعد أن عشنا بذلك القرب لوقت طويل، سيذهب كل منا في طريقه قريبًا. كان الحرّ شديدًا في تلك المقصورة. نظرت من النافذة وتعلّق المشهد الذي مرّ أمامي بعينيّ، وحفظت كل ما رأيته. وكأنك في موكب جنائزي مهم. لازمني هذا الشعور وأحسست في النهاية أني مجبر على الكتابة عنه في قصة "كناري لواحد". في ذاكرتي المشتتة، رأيت بيتًا يحترق في الحقل مع فرش وبطّانيّات وأشياء من داخل البيت منشورة في الحقل. كانت هناك إعلانات كبيرة لـ "بيل جاردينيار" و"دوبونيه" و"برنو" على الجدران التي مرّت أمامنا. رأينا خطوطًا حديدية عليها قاطرات متوقّفة ومقصورات مطاعم ومقصورات للنوم، مقصورات كُتب عليها باريس-روما ومقصورات بمقاعد على السطح؛ رأيت مقصورات تعرّضت لحوادث حطّمتها، منشقّة ومليئة بالشظايا، سطوحها غائرة. وهذا ما شعرت به تمامًا: شعرت بنفسي مشظّىً وغائرًا، جالسًا جانب زوجتي، ربما للمرة الأخيرة.

«لم ترغب هادلي في العودة إلى شقّتنا الملأى بذكرياتنا الحميمة؛ فحجزت غرفة لها ولبَمبي في فندق بوفوار، قبالة كلوزري دي ليلاس. ذهبت إلى ستوديو جيرالد ميرفي في الدور السادس، 69 شارع فروادفو، الذي كان قد عرضه عليّ. ولمعرفته بأني مفلس، أودع أيضًا أربعمئة دولار في حسابي في مصرف مورغان غارنتي، استخدمتها لتسديد بعض الديون.

«لم يكن الاستوديو مجهزًا بتدفئة وكنت مفلساً بحيث لم أتمكّن من شراء فحم للمدفأة. وصل ارتفاع سقف الغرفة المهيب إلى ثلاثين قدمًا، وغطّت الجُدُر لوحات زيتية كبيرة يتراوح حجمها من ست أقدام إلى لوحة يبلغ قياسها ثماني عشرة قدمًا بإثنتي عشرة؛ خليط مثير للإعجاب من العصرية والتكعيبية. كدت لا أصدّق توقيع الفنّان: جيرالد ميرفي. عندما كنت في الفيلا التي استأجرها في أنتيب، تلك التي اشتراها فيما بعد، وبدّل اسمها إلى فيلا أميركا، علمت أنه حوّل مرأب السيّارات إلى ستوديو، لكني ظننت أن جيرالد يتخذ الرسم هوايةً ليس إلّا. غير أن هذه اللوحات كانت رائعة جدًّا

وخلقت جوًّا جميلًا في الغرفة. كانت هناك لوحة ضخمة لساعة، عجلاتها المسنّنة خارجها، واللوحة المفضّلة لدي، خليط من شفرة حلاقة وقلم حبر وعلبة عيدان ثقاب. خمس لوحات في الإجمال. لم يرسم جيرالد خلال تلك السنوات السبع من العشرينات سوى أربع عشرة لوحة، لكنّ تلك اللوحات على الحائط واللوحات الأخرى حقّقت فيما بعد استحسانًا متزايدًا. وقد ظلّت راسخة في متحف ذهني.

«أظن أن الأمور بدأت تتداعى مع آل ميرفي عندما أطروا عليّ فأقنعوني بالقراءة بصوت عالٍ من "الشمس تشرق أيضًا" أمام مجموعة من أصدقائهم. كرهت بشدة أن أبدو مغرورًا، وأدركتُ بعد ذلك أنهم يعرضونني متباهين بي كجواد ثمين».



صورة لإرنست مع بَمبي الصغير وهادلي خلال استراحة سعيدة من شتاء باريس القاسي. شرونز، النمسا، 1925. مجموعة أ. إي. هوتشنر الخاصة



صورة لإرنست في رحلة في الهواء الطلق قرب نهر إيراتي عندما
ظهر كلب لطيف فجأة خارجًا من الغابة المجاورة. بامبلونا،
إسبانيا، 1959

الفصل الرابع

فيريا سان فرمين في بامبلونا

في اليوم التالي، غادرنا البندقية متوجّهين إلى بامبلونا، ومثلما كان مقرَّرًا، التقينا ماري وعدداً من أصدقائهما في بامبلونا،

التي تقع على الجانب الآخر من الحدود الفرنسية شمال إسبانيا. فيريا سان فرمين احتفال يستمر سبعة أيامٍ وسبع ليالٍ متواصلة، مثلما وصفه إرنست، احتفال صاخب كلّه شرب ورقص واستمتاع بالطعام، احتفاءً بالثيران التي تركض في الشوارع كل صباح، وتموت في الحلبة كل عصر.

الاشتراك في الركض حول الفيريا زاد بالتأكيد من إعجابي بالطريقة التي صُوّر بها في "الشمس تشرق أيضًا"، بما في ذلك النزهات التي قمنا بها في فترة ما بعد الظهيرة لتناول الطعام في الهواء الطلق على ضفاف نهر إيراتي، كما هو جليٌّ في الرواية. لم يلتقط إرنست الأحداث فقط ولكن أيضًا، وهو الأهم، أنه التقط اللمحات العاطفية الدقيقة التي أعطت الكتاب قوته.

بينما نحن في إحدى تلك النزهات عصر ذات يوم، في غابة من أشجار الزان بأرضها المكسوّة بالطحالب، على ارتفاع عالٍ فوق نهر إيراتي، كان إرنست يستمتع باستراحة وجيزة من صخب بامبلونا، عندما خرج كلب صيد لطيف من الغابة بصورة مفاجئة وتوجّه إلى حيث جلس إرنست وظهره متكئ على جذع شجرة زان. كانت آلة التصوير معلّقة حول رقبتي فالتقطت صورتهما. من بين الصور الكثيرة التي التقطتها لإرنست على مدى الأعوام، تلك هي الصورة المفضلّة لديّ. جلس الكلب قرب إرنست وأغمض كلاهما عينيه واستغرقا معًا في قيلولة قصيرة.

ذات ظهيرة، وبينما كنت أنا وإرنست جالسين في مقعدين مميّزين في الصف الأمامي من حلبة مصارعة الثيران، ننتظر بدء المصارعة الافتتاحية بعد الظهر، أخبرني إرنست أنه جلس مع ليدي داف في هذين المقعدين عندما جاء إلى الفيريا للمرة الأولى.

«كانت امرأة نادرة، هكذا كانت ليدي داف. أحببتّ بشكل خاص الجزء الذي يمزّق به الثور بطن الحصان فيُجرجر أمعاءه تحته بينما يواصل البيكادور[2] عمله. بالطبع، أصبح للأحصنة الآن

حشيّة واقية، ولكن ليس لغارزي الأسهم، الذين يحاولون القفز فوق السياج بعد غرس الأسهم في الثور قبل أن يتمكّن من النيل منهم. أحبّت كثيرًا تلك المطاردة، وكانت دائمًا تهتف لتشجيع الثور، وأحبّت بشدة عندما يعلّق الثورُ المصارعَ بقرنه في قفاه وهو في طريقه للقفز فوق السياج.

«في إحدى تلك الليالي، كان من الممكن أن نقيم علاقة أنا وداف. كان هناك شيء مثير في ملابسها وكلامها وعدم اكتراثها المطلق بالتقاليد. مع هذا، كان ذلك بالذات السبب وراء عدم حدوث أي شيء. في اللحظة الأخيرة، تراجَعَت قائلة، "ليس لديّ الكثير من الاعتبارات الخلقية أو المعتقدات أو الدين، ولكن ما لديّ مكان الله هو قراري الثابت كالصخر ألّا أضاجع رجلاً متزوّجًا"».

كان إرنست مصيبًا بشأن النوم والحرمان منه. أحيانًا، عندما يتأخّر الوقت كثيرًا وأشعر أني بحاجة ماسّة إلى إغماض عيني، ألتفُّ على نفسي في المقعد الخلفي في سيارة اللانسيا المركونة قرب ساحة البلدة المركزية. في بعض المرات، كان إرنست ينضم إليّ في المقعد الأمامي.

ذات ليلة، تلقينا دعوة لنادٍ خاص تعزف فيه فرقة موسيقية ممتعة، حيث يشارك الجميع في الغناء ويحتسون النبيذ المحلي اللذيذ وهم يرقصون. في ساعات الصباح الأولى، نجحت أنا وإرنست في العودة إلى اللانسيا بخطى غير متّزنة. وبعدما جلس إرنست في المقعد الأمامي متخذًا وضعية مريحة، رشف من زجاجة نبيذ نافار أحمر أحضرها معه من النادي.

«مشهدٌ أفضل من المشهد الأخير»، قال إرنست.

سألته من المقعد الخلفي، ولم أكن قد فهمت ما قاله: «الأخير؟».

«نعم. في عام 1926 كان احتفال فيريا كئيباً مع ميرفي وهادلي. لم نرقص في الشارع».

«لماذا كان كئيباً؟».

«اعتقدت أني وهادلي على ما يُرام، وأنها تتقبّل رؤيتي بولين، لكنّي اكتشفت أني كنت أخدع نفسي. أفترض أن ما أثر فيها هو عبث بامبلونا حيث كان كل شخص يستمتع بوقته. خلال مصارعة الثيران التالية والأخيرة من الفيريا، قالت هادلي، "هل تعلم شيئًا يا إرنست، حركاتك ترهقني أكثر فأكثر، وأريد مغادرة الحلبة قبل أن يفوت الأوان».

«ادّعيت أني لم أعرف عمّ تتحدّث، لكنّي كنتُ أعرف».

«لا أستطيع أن أكون غير مَن أنا».

«والمعنى؟»

«عندما نعود، سأجد مكانًا لي ولبمبي وحدنا».

«لم أكن مستعدًا لذلك. كنت أحبها، وكانت تُدافع عن كرامتها الآن، وليس من الممكن أن أكون أنا من يسلبها إياها».

«تعلمين أن مصارع الثيران يُطعنُ بقرن الثور، وإن رحلتِ... قلتُ لها بأسى».

«لن أعود إلى الشقة والأمور على حالها. سأتركك في محطّة ليون».

«ولكنّنا سنتقابل...»

«كلّا، لن يتمنى كلٌّ منا للآخر أمسية جميلة بعد العشاء... حين ننفصل نكون قد انفصلنا».

«كانت الدموع تنهمر على خديها تحت شمس العصر. شعرت وكأن شخصًا ما أسقطني صريعًا».

قلتُ لإرنست، «بابا، هل خطر لك في تلك اللحظة أن تعد بالتخلّي عن بولين من أجل حمل هادلي على البقاء؟».

«كلاّ، لم أكن مستعدًّا لهذه المواجهة، ومع صخب حلبة مصارعة الثيران من حولي وصراخ المشاهدين وموسيقى الفرقة المدوّية وأداء مصارع الثيران على الرمل، لم يكن رأسي يعمل. قبلتُ فقط ما قالته كنوعٍ من العقاب، خصوصًا عندما قالت، "أنت تعلم جيّدًا يا إرنست أنه عندما تتجاوز المصارعة الوقت المحدّد لها، تُوضع لها نهاية، ويذهب مصارع الثيران والثور كلٌّ في طريقه"».

أفرغ إرنست آخر نبيذه. «أخبرتك عن العودة إلى باريس في مقصورة القطار في اليوم التالي، أليس كذلك؟»

قلت إنه أخبرني.

وضع الزجاجة الفارغة على الأرض، أسند رأسه إلى ظهر المقعد واستسلم للنوم.

الفصل الخامس

إيحاءات في كي وست

بعد بامبلونا، بقيت أنا وإرنست على اتصال عبر الرسائل والأشرطة. كانت رسائل إرنست أفضل بكثير من تسجيلاته، فالميكروفون هو الشيء الوحيد الذي تخوّف منه إرنست أكثر من عدسة الكاميرا. متى ما وضعته أمامه، تسبب ذلك باحتقان صوته وتقطّع أنفاسه، ما جعله يبدو كعدّاء مسافات طويلة في منتصف الجري. تلقّى إرنست ذات مرة مبلغًا كبيرًا ليقدم قصصه على التلفزيون، واقترحت القناة التلفزيونية الذهاب إلى كوبا للتسجيل، لكن بعد أيام من العذاب من جراء القرار الذي اتخذه، أعلن أن حالة البلغم الدائمة التي يعاني منها منعته من المشاركة.

التقينا مرة أخرى فعليًا في صيف 1955 استعداداً للدفعة الأولى من المسرحيات التلفزيونية المُقتبسة من قصصه القصيرة والتي كنتُ أعدّها للأداء. لم أكتب للسينما أو التلفزيون من قبل، إلا أن إرنست لم يكن راضيًا عن مزيج الإنتاجات السينمائية والتلفزيونية القديمة. عندما طلب مني تولي مهمة الإشراف على كل الإنتاجات المستقبلية تردّدت، فلم يكن لديّ أي خبرة. «وما علاقة هذا بذاك؟» قال لي. «لم يكن لديّ أي خبرة بكتابة الرواية حتى كتبت أول رواية. اكتب نصًّا، وستتكون لديك الخبرة».

اقترح إرنست أنه، بدل أن نلتقي في فينكا فيهيا في كوبا، حيث اشتغلنا معًا على رواية "عبر النهر"، أن نلتقي هذه المرة في بيته في كي وست. عاش إرنست هناك على نحوٍ متقطّع مع بولين وابنيهما باتريك وغريغوري عندما كانا صغيرين، وعلّمهما اصطياد السمك وصيد البرّ وركوب الخيل، لكنه كان في العادة، كما قال لي، بعيدًا في مغامراته الخاصة، أكثر بكثير من وجوده في بيته.

«اعتبرت البيت مكاناً تركته ورائي حتى أعود إليه بعد ذلك. انغمستُ تمامًا في رحلات مثل السفاري إلى شرق أفريقيا مع ثلاثة من أصدقائي، بصحبة الصياد الأبيض الشهير فيليب بيرسيفال، الذي انضمّ إلى كل رحلات السفاري التي قمت بها بعد ذلك. شاركت بولين في أول رحلة سفاري قمتُ بها، وهي رحلة فخمة دفع تكاليفها عمها غاس، وأرادت الانضمام إلى مجموعة شرق أفريقيا، لكنني أبقيت المجموعة حصرًا على الذكور، تاركًا بولين لرعاية البيت والأولاد».

* * *

في صباح 4 تموز/يوليو 1955، طرت إلى ميامي، ثم ركبت بعد الظهر طائرة صغيرة متوجهة إلى كي وست، وأخذت سيارة أجرة إلى 414 شارع أوليفيا، العنوان الذي أعطاه لي إرنست. كان شارعًا يضم مجموعة من المنازل القذرة المتداعية بأسوار متآكلة وأفنية يغطيها العشب الطويل. عندما اشترى عم بولين هذا البيت، لها ولإرنست، في فترة الثلاثينات، كان هناك عدد متفرق من السكان في الحي، وحاذت نوعية البيوت القليلة الموجودة مستوى الجودة التي تُناسب إرنست (في الواقع، امتلك إرنست بيتين: بيتًا رئيسيًّا كبيرًا، وبيتًا صغيرًا أكثر حداثة إلى جوار بركة سباحة). البيت الرئيسي من الحجر على طراز العمارة الإسبانية، وشرفة ذات نوافذ فرنسية بمصاريع خضراء. أما الأرض الوارفة فمغطاة بأشجار الساغو، والبالميتو، والنخل وأشجار البانيان. لم ترحم عجلة الزمان الحي، فأصبح بيت إرنست الآن واحة وسط البؤس. لم يعش إرنست هناك منذ عام 1940 عندما تطلقّ هو وبولين بعد انفصال طويل. أصبح البيت ملكًا لها بناءً على تسوية الطلاق وعاشت هناك حتى توفيت مؤخرًا وورث ابناهما البيت. إلا أنهما لم يرغبا في المعيشة هناك، كما أنهما لم يعيشا في الجوار للاعتناء به. لهذا انتهى الأمر بحضور إرنست من كوبا، حيث عاش في فينكا فيهيا في سان فرانسيسكو دي بولا، ليتفق مع سمسار عقار لتأجير البيت أو بيعه.

* * *

جاء إرنست من البيت الرئيسي لتحيّتي مرتديًا شورت سباحة. تحرّك ببطء لكن نوعاً ما أفضل من تلك الليلة في غريتي بعد الحادث مباشرةً.

وضع حاجياتي في بيت البركة ثم ذهبنا معًا للسباحة في الماء المالح الدافئ بتأثيره المريح الأشبه بحمام كبريتي. أخبرني إرنست أن البركة تفرغ وتمتلئ أثناء الليل بماء شبه مالح. نزل في البركة بحذر، متوقفًا عدة مرات على درجها ليرش الماء على وسطه. سبح ببطء شديد ورأسه فوق سطح الماء، ودفْعُ ساقيه تنقصه القوة تمامًا، وذراعاه تتحركان عبر الماء بخمول. وكلّما وصل إلى حافة البركة، توقف وارتاح دقائق عدّة لاستعادة قوته. لم يعد السباح القوي القادر كما كان قبل حادث تحطم الطائرة. جاءت ماري وانضمت إلينا في البركة.

كانت ماري وإرنست مدعوّين إلى حفل فاخر للاحتفال بالرابع من تموز، إلا أن إرنست توسّل ألّا يذهب في آخر لحظة وأن تذهب ماري وحدها. أكد لها إرنست أننا سنتدبّر أمورنا في غيابها. نظر إلى ساعته وقال: لقد حلّ بعد الظهر. بإمكاننا الآن تناول المشروبات الجادة. أحضر كأسي سكوتش وماء من الثلاجة. كان الماء قد تجمد فوق السكوتش، وعندما أملنا كأسينا، شق السكوتش ينبوعًا عبر الثلج ليصل إلى فمينا، ما أعطى انطباعاً أنك تشرب من ينبوع جبلي تحول فجأة إلى سكوتش. أطريت إرنست على اختراعه.

وقت الغروب، جلسنا على التيراس بينما بدأت أولى الألعاب النارية تظهر في السماء. كشف إرنست الغطاء عن شرائح لحم مُقدّد تركتها ماري على الطاولة، ووضع إرنست اللحم على شرائح كبيرة من الخبز وغطّاها بسخاء بمعجون الفجل الأبيض الحار. كان عشاءً في منتهى الروعة مكونًا من ينابيع السكوتش والسندويشات.

ومع تحوّل الغروب إلى ليل، بدأ الجنود بإطلاق ألعابهم النارية الأكثر روعة، بدخانها الذي عانق النجوم.

قال إرنست، وعيناه مسمّرتان على السماء: «فكرت أن الابتعاد عن الفينكا سيكون شيئاً جيداً وأن أتأمل الماضي بحثًا عن القليل من الأمان والوحدة. هنا كتبت "ثلوج كليمنجارو"، وهذا ما يمنحني الحقّ بالتواجد في هذا المكان، ولكن الآن، وبعد أن وصلت بي الأمور إلى ما هي عليه، فإن هذا ليس هروباً إنه يذكرني فقط بجانب مزعج من حياتي. كان عليّ أن أعرف أفضل من أن آمل بالخلاص».

شعرت أن ذلك كان وقتًا مناسبًا لأسأله عما حدث بعدما انفصل عن هادلي، وبعد أن ذهب كلٌّ منهما في طريقه. هل استمر برؤية بولين؟ أجاب: «بالطبع، فقد تأكّدتْ من ذلك»، لكنه حافظ على التزامه بقضاء الوقت مع بَمبي. «في إحدى تلك المرات، جئت لاصطحابه، فواجهتني هادلي وقالت: حان الوقت لنتحدث. سألتني إن كنت لا أزال مُصرًّا على بولين. هل بإمكاني تركها؟ سألتها: لماذا أرادت أن تنبش كل هذا. كنا سعداء، أليس كذلك؟ فلمَ إثارة المشاكل؟ قالت إنه إذا حدث شيء وانقلب المركب، فهي من سيغرق. أنا وحدي ليس لديّ ما أخسره. قلتُ: سيّان كانت الحال فهناك الكثير لأخسره. التقطتْ قلمًا وورقة. "هناك سوء فهم إذن"، قالت، ثم كتبت وإن "لم يلتقِ بولين فايفر وإرنست همنغواي لمئة يوم، وإن أخبرني إرنست بعد انقضاء تلك المدة، أنه ما زال يحب بولين

فايفر، فسأقوم، دون مزيدٍ من التعقيد، بتطليق إرنست همنغواي". وقّعت اسمها وقدمت القلم لي. أخبرتها أن ذلك يبدو مثل مذكرة موت، ولم آخذ القلم منها. "إنها كذلك"، قالت. "إما أن تموت هي أو أموت أنا". كانت محقة بحماية نفسها بذلك الاتفاق. لم أوقع أي شيء في حياتي بمثل ذلك التردد. أخذتُ القلم ووقّعت.

«"إذن هذا كل ما في الأمر؟"، قالت والتقطت الورقة. "سأذهب أنا وبَمبي لنعيش وحدنا حتى أسمع منك. أما في ما يتعلق برؤيتك بولين، فأنت ونزاهتك".

«"هادلي"، قلت، "أحبك، أنا أحبك فعلاً. لكن هذه مشاعر غريبة خاصة نحوها ولا أستطيع شرحها".

«قالت إنها لم تكن تطلب شرحًا، فلا منفعة من الشرح. قالت إني كنت حياتها، حياتها كلها، لهذا ضحّت بإهانتها محاولة الاحتفاظ بي. "مئة يوم كأنها الأبد، لكني سأنتظر بفارغ الصبر، وأتمنى أن تستهلك مشاعرك الغريبة نفسها".

«تلك الليلة، تناولت العشاء مع بولين وأخبرتها عن المئة يوم. ابتسمت وقالت إنها مستعدة لذلك، وأن مئة يوم ثمن بخس تدفعه للحصول عليّ. أخذت وردة من المزهرية على الطاولة وأعطتها لي وقالت لي أن أتأكد من وضعها تحت فرشتي.

«نفت بولين نفسها إلى بيغوت، بلدتها في أركنساس، بتعداد سكان يصل إلى ألفين. يمتلك والدها وعمها غاس كل شيء هناك، إلا أن أموالهما لم تتمكن من التخفيف من مللها.

«قبل مغادرتها، تركت لي رسالة بأنه مُقدّر لنا أن نواجه الحياة معًا. كتبت لي أنها تحب هادلي كثيرًا، لكنها أخذت قرارها. قالت إن لديها المال الكافي لنعيش معًا براحة، أن بإمكاننا امتلاك بيوت في البلدان التي نحبها عبر العالم، بخدم يتركونها عامرة عندما نحضر بأبنائنا الستة أو السبعة الأقوياء، كلهم يتحدثون لغة أي بلد نعيش فيه. مئة يوم وقت طويل، كتبت. لم تكن سعيدة بتلك الفرقة، لكنها فرقة حبلى بالتفاؤل».

سألت إرنست إن كانت هادلي قد بقيت في باريس.

«نعم»، أجاب. «وجدت شقة في رو دي فلورانس، ليست بعيدة عن جيرترود ستاين. أعطتني قائمة بالأشياء التي أرادتها من شقتنا؛ مفروشات، بعض هدايا الزواج، قطع ورثتها من عائلتها في سانت لويس، بعض الملابس، كل حاجيات بَمبي، واللوحة التي أهديتها إياها بمناسبة عيد ميلادها، لوحة زيتية من عمل الفنان الإسباني مايرو اسمها: المزرعة.

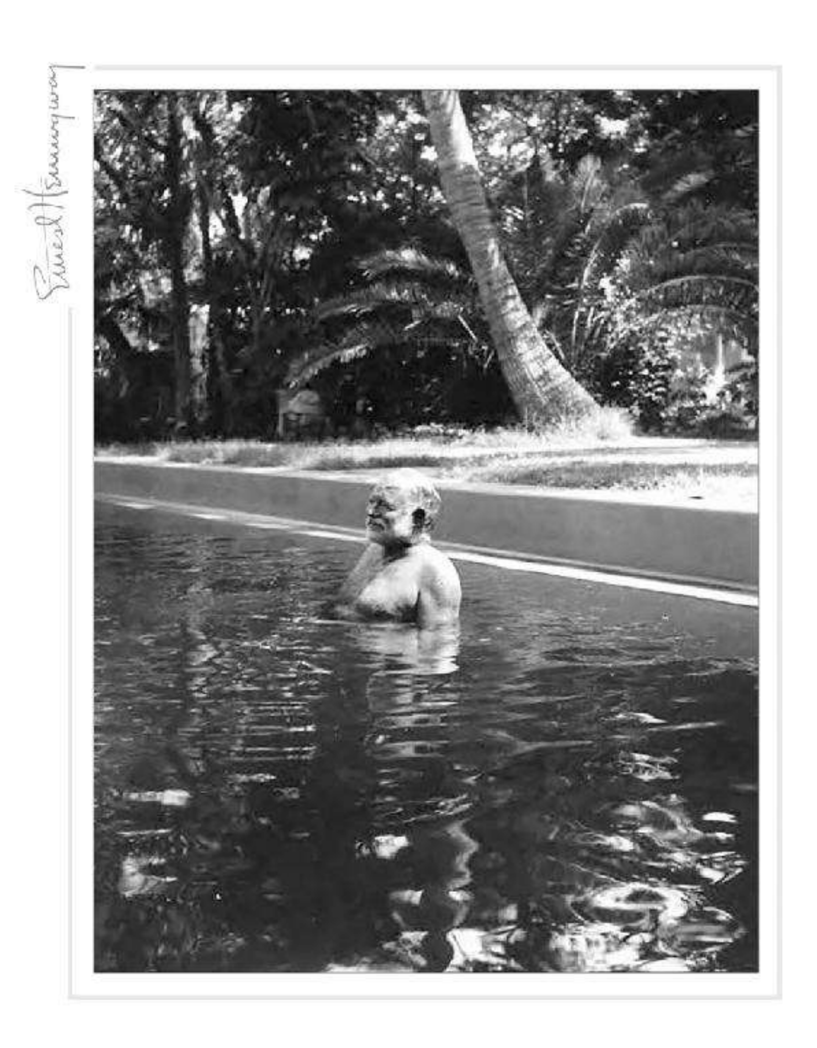
«استعرت عربة يد من المنشرة وقمت بعدة رحلات إلى بيت هادلي، على بعد خمسة شوارع من الشقة التي كنا سنتخلى عنها. أثّر بي وضع تلك الأشياء الحميمية في العربة ودفعها في الشارع، فبدأت البكاء وبكيت طوال الطريق. البكاء نادر جدًّا بالنسبة إليّ. عندما وصلت إلى شقتها، لم تكن هادلي هناك. كانت ماري كوكوت ترعى بَمبي الذي ركض نحوي بسعادة. عندما رأى دموعي، سألني كيف آذيت نفسي. أريتُه جرحًا على ظهر يدي اليمنى. أصابه القلق بشدة وركض ليحضر ضمادة لاصقة وضعها بحنوّ على الجرح، ما جعلني أبكي أكثر.

«وضعت لوحة مايرو وحدها في آخر حمولة للعربة. كان صديقًا طيبًا، غير معروف مطلقًا حينها. اضطررت للاقتراض حتى أجمع ثمن اللوحة الضئيل. أحبّتها هادلي وعلّقتها على الحائط فوق سريرنا. عندما وقفت على السرير لأرفعها عن الحائط وأضعها في العربة، جعلني ذلك أشعر بفداحة ما كنت أقترفه نحو نفسي.

«بعد أن أفرغت آخر عربة، حملت بَمبي لأودّعه. ربّت على ضمادتي بحنوّ. وقال بالفرنسية "أحبك يا بابا"، اللغة الوحيدة التي يتحدث بها. أضاف: "الحياة حلوة مع بابا"».

وقف إرنست وأخرج كأس سكوتش أخرى من الفريزر. كانت كأسي لا تزال مترعة. تابعت الألعاب النارية الانطلاق في السماء. فتح إرنست كيس بريتزل وأفرغ محتوياته في وعاء.

«كنت قد استقررت في ستوديو ميرفي»، قال، «لكني لم أحب الإطلالة الخارجية كما أحببت اللوحات في الداخل، لأن المشهد الخارجي كان لمقبرة مونبارناس، التي تواجه النوافذ. والمقبرة إطلالتي ومئة يوم من البؤس أمامي، أصبحتُ مستعدًا لأتمدد تحت شاهدة قبر كُتب فوقها: هنا ينام إرنست همنغواي الذي سار في اتجاه بينما كان الأحرى به أن يسير في الاتجاه الآخر».



صورة لإرنست في مياه بركة كي وست المالحة. التقطت هذه الصورة عندما زرته هناك في عام 1955. أ. إي. هوتشنر

الفصل السادس

أشخاص يُعتمد عليهم وأشخاص يجب إقصاؤهم

في مساء اليوم الثالث من زيارتي لكي وست، كانت ماري تستعد لاستضافة مجموعة من أعضاء نادي زهرة الأوركيد الذين كانوا ينصحونها بزراعة «أكواريوم» أوركيد (حسب تعبيرهم) على أرض الفينكا. ولذا، قرر إرنست أن نغادر، أنا وهو، البيت لاحتساء المشروب وتناول الطعام في مكانه المفضل، سلوبي جو، أكثر الصالونات شهرة في كي وست.

«كنت في السابق شريكًا مالكًا لسلوبي جو مع جو راسيل»، قال إرنست. «"شريكان صامتان"، هذا ما أطلقوه علينا. كان لعب القمار يجري في صالة خلفية حيث وجد المال بالفعل، إلا أن الحصول على رماة نرد ماهرين كان أمرًا صعبًا، فلو أن الرامي، من المهارة لدرجة أنك لا تكتشف ذلك بنفسك فسيسرق منك. أما التكلفة الأعلى في عمليات القمار، بما في ذلك عملنا، فهي حماية الشرطة. دفعنا سبعة آلاف وخمسمئة دولار لانتخاب شريف، أصبح مُتديّنًا في عامه الثاني وطلب منّا إغلاق الصالة فأغلقناها».

كان المكان، بقطعه التذكارية ومفروشاته المزعجة، مزدحمًا بالسياح، لكن في زاوية محمية، كان هناك طاولة محجوزة باسم إرنست. طلبنا بابا دوبلاس، وهي نسخة من مشروب بابا دوبلاس الذي أعدّه له مطعم فلوريديتا في هافانا. كما قدموا لنا طبقًا ممتلئًا من الروبيان بقشره وصحن غواكامولي حرّاق.

«هوتش»، قال إرنست. «أريد أن أطلب منك معروفًا. تتسبب لي الآنسة ماري بأوقات عصيبة. تقول إني لست الكاتب الوحيد في العائلة لكني أناني لدرجة أني لا أعيرها أي اهتمام».

«بخصوص ماذا؟».

«مساعدتها في العثور على مهام للكتابة. هل تعرف أنها كانت مراسلة صحفية لمجلة تايم عندما التقيتها أول مرة في لندن؟ تريد أن تكتب مقالات. لكني لا أعرف ما عليّ القيام به للعثور على مهمات لها. لهذا فكرت أنك ما دمت في نيويورك حيث توجد المجلات، فربما بإمكانك المساعدة؟».

لم أكتب للمجلات منذ فترة ولم أعد أتواصل مع المحررين، لكني قلت إني سأحاول بالتأكيد. (في النهاية، نجحت في العثور على مهمة لها في إحدى مجلات النساء، «زوجي، إرنست

همنغواي»).

قال إرنست إنه آسف لطلب ذلك مني، «لكنه إصرار ماري الذي لا ينقطع بأني أهملت الكاتب فيها، وأني لا أريدها كمنافسة، و و...، كادت أن تُفقدني صبري، فأوشكتُ على رمي آلتها الطابعة بمشروبي.

«مارثا [زوجته الثالثة] كانت على الدرجة نفسها من السوء، لم تتوقف عن تذكيري بكتاباتها، كيف أن علينا أن نجد وقتًا يناسب جدولها، أين ومتى علينا أن نذهب إلى هنا وهناك لأجل مهماتها. كانت كاتبة جيدة، أعترف بذلك، لكن أيضًا ككاتب، لم أكن مستعدًا لوضع احتياجاتها قبل احتياجاتي. كان انفصالنا خلاصًا لها، فمع عدم وجود أي أطفال، أو حب، كانت تجني مالاً أكثر مني، وذكّرتني دائمًا أن مستقبلها أفضل من دوني. وعلى الأرجح أن ذلك صحيح، لأن اهتماماتنا وأذواقنا لم تكن متشابهة. كنت أحب وحدة الكتابة ولم أستطع مطابقة طموحها. علاقتنا في مدريد خلال الحرب الأهلية الإسبانية، والقنابل تتساقط على المدينة، انتهت بسرعة عندما ارتكبنا الخطأ بالزواج، لكنْ لا يراودني أي شعور بالندم بشأن العلاقة فقد كان لها التأثير الإيجابي بإجبار بولين أخيرًا على طلب الطلاق».

لأنه بدأ يتكلم عن مارثا وبولين الآن، فكرت أنه وقت مناسب للعودة بإرنست إلى الحديث عن المئة يوم.

«هل كانت رواية "الشمس تشرق أيضاً" قد نُشرتْ في ذلك الوقت؟»

«كانت تجد طريقها إلى محلات بيع الكتب. في تلك الأيام الأولى من حكم المئة يوم، حاولت أن أتماسك بالتواصل مع أشخاص اعتقدت أن بإمكاني الاعتماد عليهم لمؤازرتي،

مثل ليدي داف وفرقتها من السكّيرين. لكن عندما اقتربت منهم عند القُبّة بنسخ موقعة من رواية "الشمس تشرق أيضاً"، انقلبوا عليّ. قال بات أني يهودا وأنهم لا يريدون كتابي القذر. قلت، "ما خطبك؟ ليس أكثر من رحلتنا إلى بامبلونا. ما الضرر في ذلك؟". "الضرر أن العالم كله ينظر إليّ الآن كسكّير بائس يعاشر ابنة عمه الخليعة"، أجابني. أشرت إليه أني لم أطلق على الشخصيات

في كتابي أسماءها الحقيقية، فردّ: "أوه بالتأكيد، لا أحد يشك أن ليدي داف توايسدن هي لادي بريت آشلي في الرواية؟ لا تضحكنا".

«"حوّلتني إلى يهودي سفيه"، قال هارولد. "ما الذي اقترفته لتجعلني بذلك الخبث؟ لقد تلاكمت معك، لعبت التنس معك، جلبتُ لك محارًا من برونير، وزجاجات بويلي فويز، عرّفتك إلى شخصيات ذات نفوذ، ساعدتك للقاء الناشرين في باريس، فقط ليشير الناس في كل مكان: ها هو هارولد لويب، اليهودي البغيض في كتاب همنغواي".

«قلت: "اسمعوا، كلكم. لقد كنّا كما كنّا، وفعلنا ما فعلناه. لم أستخدم أسماءكم الحقيقية". قالت داف إني أخطأت بشأنها. إنها لم تعاشر مقاتل الثيران البغيض، ثم سألني بات إن كان عضوي الذكري قد تعرّض للرصاص أثناء الحرب، هل كنت أنا جيك بارنيس الذي لا يمتلك عضواً ذكرياً؟

«انهلت عليهم. "أيها الجبناء الأوغاد، الخائفون من مواجهة حقيقتكم المجردة. بات، أنت سكير متسكّع يعاشر ابنة عمه ويستغل الجميع. وأنتِ يا داف، صحبتك رائعة، أحبك، لكن لنواجه الحقيقة. تنتقلين من سرير إلى آخر على أمل أن تعثري على شيء غير معروف ضاع منك. وأنت يا هارولد، هل تعرف مشكلتك؟ أنت من عائلة غوغينهايم دون أي ميزات، محبط لأن أعضاء غوغينهايم الآخرين يرمون لك بعظامهم ويتركونك خارج حلقتهم الداخلية، لا يستمعون لأي من نصائحك".

«قفز هارولد قالبًا كرسيّه، مهددًا بأن ينهال عليّ ضربًا. سيطرت داف على الوضع. ناشدتنا ألا ننفعل. طلبت مني المغادرة وأخذ كتبي معي. "نحن من نحن"، قالت. "كنا أصدقاءك فيما مضى".

«كانت هذه النهاية الحزينة لمرحلة التشجيع. في تلك الليلة، تناولت عشاءً سائلاً من السكوتش والمزيد من السكوتش في كافيه لي دو ماغو».

أشار إرنست إلى النادل لإعادة ملء كأس الدايكيري. نظر إلى طبقي المليء بالبقايا ورمقني بنظرة استغراب. «لماذا تركت رؤوس الروبيان؟ إنها أفضل جزء». أمسك أحدها وقضمه بسعادة، فقضمت أحدها، دون أن أشعر بالسعادة.

«ما أثّر فيّ هو أن هارولد لويب أعلن أنه سيطلق عليّ النار في مكاني بسبب ما كتبته عنه. لم تغيّر حقيقة أني أطلقت عليه اسم روبرت كوهين في الكتاب أي شيء. وكي لا يواجه أي صعوبة في العثور عليّ، أرسلت له برقية أعلمه أني سأكون في لو تراود أنز لو مور في وقت محدد، وفي وقت آخر في بوليفارد كابوتشينز مقابل كافيه دي لا بيز، إلا أن السيّاف هارولد لم يحضر. مع ذلك، بعد أسبوع تقريباً، كنت أتناول العشاء في مطعم ليب في شارع سانت جيرمين ديس بريس عندما رأيت هارولد يدخل المطعم. توجهت نحوه مادًّا يدي. ابتسم وبدأ مصافحتي قبل أن يدرك أن "الشمس تشرق أيضاً" قد جعلتنا أعداءً إلى الأبد، فسحب يده وأخفاها وراء ظهره. في الواقع، قال، "مستحيل". "حسنًا"، قلت وعدت إلى طاولتي. "اشرب وحدك إذن". غادر المطعم وكانت تلك نهاية ذلك الانتقام.

«انفصل الآخرون في تلك المجموعة. قد يكون للكتاب دور في ذلك. ما حصل لداف كان مؤسفًا. لقيت نهايتها بسبب التعرض لنوبة خبيثة من مرض السل. كان حاملو نعشها جميعهم عشاقها ذات مرة. أثناء خروجهم من الكنيسة، تعثّر أحد حاملي النعش البائسين على درجها القديم وسقط النعش وتدحرج عن الدرج العالي ليقع وينفتح على الرصيف الجانبي».

جاء النادل إلى طاولتنا وقدم لنا ما سمّاه برج سمك التونا-الأفوكادو-السلطعون، وهو برج صغير بطبقات متناوبة، أحد مأكولات إرنست المفضلة.

«يهتمون بي هنا»، قال إرنست. «هل رأيت أي شيء أجمل على طبق من هذا؟ الطاهي الذي اخترعه انتحر».

أخبرته أنه لا يشبه أي طبق سبق أن تناولته أبدًا. تناولناه بصمت، لنعطيه كل انتباهنا.

«ليس طعامًا سيئًا لصالون»، قال إرنست عندما انتهى وأشار لإعادة ملء الدايكيري.

سألته إذا كان أصدقاؤه في باريس قد انحازوا لأحد منهما دون الآخر بسبب انفصاله.

«لم يكن انحيازًا أكثر من أن أحداثًا وقعت لتؤذيني. مثل أمسيات جيرترود ستاين. كنت أنتظر تلك الأمسيات وأعتمد على جيرترود كصديقة. التقيتُ معارفي من الفنانين والكتّاب في تلك الأمسيات. ذات أمسية، احتسيت المشروب مع بيكاسو في الدينغو، وناقشنا احتمال قيامه بعمل

رسومات لكتاب أخطط لتأليفه عن عراك الثيران. بعد ذلك توجهنا إلى جيرترود لإحدى أمسياتها الأسبوعية. جيم جويس، دوس باسوس، جانيت فلاندر من ذا نيويوركر، الفنان خوان جريس، كانوا كلهم هناك عندما وصلنا. قالت جيرترود وهي تسكب لي ولبابلو بعض النبيذ: سمعت أنكما لا تحبان كتابي "سيرة آليس توكلاس". أخبرني جواسيسي أنك وذلك الناقد الذي عين نفسه بنفسه، السيد بيكاسو، قُمتما بذمه في محل سيلفيا للكتب.

«أجبتها، "بالفعل، لا نحبه لأنه مليء بالكذب المغرض وبالهجوم الخبيث على الناس".

«قالت جيرترود، "لا، ما كتبته كان نقدًا صريحًا لك ولكل شخص آخر".

«"لا، كذب"، ردّ بيكاسو.

«"أولئك الذين لا يريدون تقبل الحقيقة المُرّة يرفضونها غالبًا على أنها كذب"، قالت جيرترود.

«"كذب، يا جيرترود، كذب، كله كذب"، قلت.

«قرّبت جيرترود وجهها الكبير مني. "تعرف يا همنغواي، أنت شخص خلقته أنا، شخصية بطولية تجوب الأرض بحثًا عن مغامرة. في الحقيقة، تحت الضغط، أثبتّ أنك جبان. وهذا شيء محرج لي".

«"حسنًا أيها السادة"، قلت، "ما لدينا هنا هو عقل مفكّرٌ أصبح مفرطًا في السمنة. امرأة كانت ذات مرة تتحكم في القدرات التي تمتلكها لكنها تدهورت الآن إلى حقدٍ واعتدادٍ بالذات لا معنى له".

«"أنت تتمتع بنجاح صغير - كتاب واحد - قطرة واحدة في محيط الحياة، ومن المُفترض أن يؤهّلك هذا للحكم على شخص أفضل منك؟ لا تجعلني أضحك".

«انضمّ جويس إلى الحديث قائلاً، "هذه هي طريقة التعامل معها يا هيم. الكذب هو سلاحها في الحياة، تجلس بسمنتها في صالونها، تقايض نميمتها بمواهب الآخرين. أقترح ترك جيرترود ومشروباتها الواهنة والذهاب إلى ماك غروز لاحتساء الويسكي الإيرلندي الأصلي".

«وهكذا انتهى كل شيء مع جيرترود.

«ثم جاءت الرسالة الحانية من أمي العطوفة والتي ما زلت أحملها قرب قلبي». أخرج إرنست محفظته من جيب بنطلونه وسحب منها قطعة ورقية مهترئة وقرأ منها: "إرنست، وصلتني النسخة الموقعة من الشمس تشرق أيضاً التي أرسلتها لي. ورغم أني أم سعيدة لأنها تُباع بصورة جيدة، إلا أنك نلت فخرًا مشككًا به، فقد ألّفتَ أحد أبذأ الكتب لهذا العام. لا بد أنك تعرف كلمات أخرى جوار اللعنة والعاهرة. أحبك يا عزيزي ولا زلت أؤمن أنك ستنجز شيئًا يستحق الذكر يدوم بعدك"».

قال إرنست إنه يعتبر سيلفيا بيتش ومحلها لبيع الكتب مصدر طاقة إيجابية له. كانت مثل أخت - في الواقع، أكثر من أخواته - لكنها كانت متعاطفة جدًّا مع محنته، تتوق للتخفيف عنه، جعله ذلك يشعر بالبؤس شيئًا ما، والبؤس هو الشيء الذي أراد تجنبه. أن يتجاوز محنة المئة يوم سليمًا دون أن يتداعى، هو كل ما أراده. لهذا تحاشى سيلفيا.

«هناك شيء آخر اعتمدتُ عليه وهو مواصلة أمسيات ليلة الخميس مع جويس، لكن عندما ذهبت إلى مكاننا المعتاد للشرب، تركني لأستنتج أن محنتي جعلتني شخصاً غير مرغوب به في الوقت الحالي لأنها كانت تغرقني لدرجة أن ميلي للبكاء خفّف من قوة مشروبه.

«في الحقيقة زاد المشروب من عذابي. هذا بالإضافة إلى رسائل بولين اليومية، والتي ندبت فيها عذاب بيغوت وشِراكه، بالإضافة إلى شوقها المتوحش لي، وكأنها تتمنى أن تُرسَل لي مغلفة بورقة بيضاء بقرشين. كانت تلك الرسائل بمثابة فتيل أشعل ردودًا مزرية، مثيرة للشفقة ورخيصة للغاية مني، متمرّغًا في الأسى، لائمًا نفسي على تعاستها، وهو نوع آخر من الجنون».

«بابا، ظننت أن جويس كان صديقًا مقربًا لك. يؤسفني أن أسمع أنه تخلّى عنك. ماذا عن فيتزجيرالد؟» سألتُ همنغواي.

«نعم، كان سكوت حريصًا عليّ بالفعل. كما كنت حريصًا عليه. انتقادنا الودّي أحدنا للآخر كان رابط صداقتنا. عندما وصفت محنتي مع المئة يوم، أخذ جانب هادلي. قال: "تذكر، لقد حاولت منع هذا من الحدوث. حذّرتك أن بولين لن تقنع أن تظلّ عشيقتك، وأنها أرادت الزواج منك. لقد بدأت تتحرك في الشتاء الماضي بثبات لتتمكّن منك، ولكن في نفس الوقت حافظت على تواصلها مع

زوجتك، قدّمت نفسها دائمًا على أنها بريئة، تغادر لبرهة، لكن لفترة كافية حتى تشتاق إليها. من المحتمل أن تجلب لك أشياء إيجابية، لكنها ستجلب لك الندم. لا تحاول التعايش مع الندم فسيحطم الندم قلبك".

«أخبرت سكوت أنه لا يفهم أن حبّ امرأتين في الوقت نفسه، حبهما بإخلاص، هو أسوأ ابتلاء يمكن أن يعانيه رجل. "في داخلي رجلان، كلاهما سعيد في الحب، لكنهما توأمان لا يستطيعان الافتراق - لهذا يجب أن يموت أحدهما الآن - يتشاطر التوأمان داخلي مشاعرهما لكن عليهما الاختراع والتظاهر والتملّص. تكره نفسك لأنك تبقيهما على قيد الحياة لكنك تعرف أن على أحدهما أن يموت، ومع ذلك تشعر برضا غير عقلاني لأن امرأتين تحبانك في عالم خيالي، روائي غير عقلاني لا يختلف عن العوالم التي نخترعها في رواياتنا وقصصنا، جنة عدن معزولة".

«سألني سكوت إن كانتا مختلفتين فعلاً، متميزتين عن بعض. أجبت نعم، هما كذلك، أن هادلي بسيطة، تقليدية، متقبّلة، عادية، سمحة، فاضلة؛ أما بولين فمعاصرة، أنيقة، عدوانية، ماكرة، غير تقليدية.

«سألني سكوت إن كانتا مختلفتين في المعاشرة الجنسية.

«"مثل الليل والنهار"، أخبرته. "هادلي مذعنة، خاضعة، تابعة، نشوة حلوة. بولين انفجارية، انفعالية بوحشية، مسيطرة، تمتطيني، تبلغ نشوتها مثل عاصفة رعدية. هما ضدّان. أنا مسؤول عن هادلي وبولين مسؤولة عني".

«"اسمع يا إرنست"، قال: "الشيء المهم هو أن تكون أنت مسؤولاً عن نفسك. بالإضافة إلى الجنس، بولين مثقلة بالأموال، الخدم، الشقق الفاخرة، المطاعم، رحلات سفاري من الدرجة الأولى، مركبك الخاص..."

«قلت له إني لا أكترث مطلقًا لكل ذلك.

«"لكنك تكترث، يا هيم"، قال. "ستعيش مثلما أعيش، وهو شيء تتمناه. سيروق لك أن تكون لك طاولتك الخاصة في الريتز، فيلا في كاب دي أنتيب، رحلات سفاري بأعلى مستوى. أنت تعب من الفقر. الفقر مهلك وقد أضناك".

«"لكني سأجني المال من كتبي"، أجبتُه.

«"ليس ذلك النوع من المال"، ردّ سكوت. "لا يوجد لديك العم غاس كصرّافك الشخصي. أنت عامل تجزئة، تمر أعوام حتى يُدفع لك مرة ثانية. لا تمتلك أموالاً تسندك خلال تلك الفجوات الزمنية. أنت بحاجة لصفات هادلي المشرقة، ابتهاجها. لا تستطيع بولين ولا أموالها منحك ذلك".

كان هناك مغنيان كوبيّان بزي تقليدي يدوران حول الصالون. وصلا الآن إلى طاولتنا وغنيا لنا أغنية كوبية يعرفها إرنست، الذي بدى مرتاحًا لطرح ذكرياته المزعجة والغناء معهما. بعد أن ابتعدا، أخبرني أنه قد خزّن بعض الأشياء في غرفة خلفيّة في سلوبي جو في فترة الثلاثينات، عندما غادر إلى كي وست، وأراد أن يعرف إن كانت لا تزال هناك وفي حال أفضل من بقية الأشياء التي رأيناها في المنزل.

ذلك الصباح، كنت مع إرنست عندما فتح بابًا محاذيًا لغرفة المعيشة يقود إلى غرفة خزّن فيها منذ مدة طويلة نسخًا أولى، نصوصًا أصلية، رسائل، ومواد لم يتم نشرها. أمسك بنسخة أولى من "سيول الربيع"، أول رواية تُنشر له، قطعة نادرة، فسقط الغطاء المتعفّن من يده. داخل كرتونة صغيرة كان هناك نص قيد التنفيذ لرواية "أن تملك وألا تملك"، صفحاتها قاسية ومهترئة، تفتتت من جراء لمسه لها. الرطوبة والعفن وقضم الخنافس الشريرة تسبّبت في ذلك. أخبرني إرنست أن بولين أعادت ترتيب المنزل بعد أن رحل وتخلّصت من جميع النشرات الدورية التي وقفت عائقًا في طريق الترتيب، ونُقلتْ كل النصوص من الخزائن المقاومة للعفن وتم تخزينها في كراتين، حيث شكّلت مادة مثالية لأعشاش الفئران والجراذين، وقرضَتها صراصير كي وست هائلة الحجم.

الآن في مخزن سلوبي جو، عثر إرنست على الخزانة المقاومة للعفن التي ترك فيها ممتلكاته. فتح درجًا وأخرج نصًّا لرواية "الشمس تشرق أيضاً"؛ كان في حالة جيدة، مثله مثل جميع النصوص الأخرى والأوراق في الدرج. أعلن إرنست: «كيف يروق لكم ذلك الآن، سادتي الخنافس والصراصير، سحقًا لكم. لا يوجد غداء مجاني هنا». ضحك من قلبه وهو يغلق الدرج برفق ويقول، «في نهاية المطاف، سلوبي جو ليس قذرًا».

كان اليوم التالي في منتهى الحرارة، الهواء لا يتحرك، وأسراب من الحشرات الطنانة تحوم في الحديقة. طلب إرنست كتلاً ثلجية كبيرة لتطفو فوق مياه البركة الدافئة، إلا أن التأثير كان نفسيًا

أكثر من كونه مؤديًا للبرودة. جلسنا على الحافة الظليلة من البركة، سيقاننا داخل الماء على مقربة من كتل الثلج العائمة، وماري في غرفة المعيشة تحت مروحة السقف تكتب الرسائل.

«إذن كنت وحيدًا في الغالب عندما بدأت المئة يوم؟»

«نعم. وكأنك في حبس انفرادي في سجن ضخم دون ثقب باب أو مفتاح، وأنا نفسي السجان. كنتُ أزور بَمبي، أصطحبه معي لفترة ونقصد عادة حدائق لوكسمبورغ. بقيت هادلي خارج الشقة عند حضوري لاصطحاب بَمبي، الذي كان في غاية الوداعة، وهو ما جعل انفصالي أسوأ. اخترع بَمبي اسمًا لي؛ "مدام بابا". كان يخبرني عن ذئب متوحش يعيش في الشقة؛ "الذئب لوب لوب". أحيانًا، إن لم نكن جالسين على مقعد في لوكسمبورغ نطعم الحمام أو نتناول الآيس كريم في البافيليون، يتذكر هادلي ويقول: "ماما حزينة وتبكي".

«أثّر ذلك فيّ كثيرًا».

اندفعت سحلية صغيرة بسرعة على حافة البركة، توقفت على ركبة إرنست، نظرت إليه بسرعة، ومضت في طريقها بينما واصل إرنست الحديث.

«كنت سجين ستوديو ميرفي عديم التدفئة، مفلسًا، بالكاد أتناول وجبة واحدة في اليوم، وحتى أتجنب التفكير بتعاستي، دفعت نفسي لكتابة قصص قصيرة عن الأحداث المؤلمة في حياتي؛ "كناري لشخص واحد". سردت أحداث رحلة القطار تلك مع هادلي، آخر وقت لنا مع بعض، في طريقنا إلى باريس لنقيم في بيتين منفصلين. "في موطن آخر" عادت بي إلى أوسبيدال ماجيوري في إيطاليا، حيث تلقيت العلاج لركبتي المهشمة جوار رائد إيطالي تمزّقت يده اليمنى. ساعدتني الكتابة عن ذلك في التخلص من تلك الذكريات الأليمة.

«في بعض الليالي، بدل أن أحاول النوم والفشل في ذلك، كنتُ أتجول في باريس. أتسكّع على الكونكورد، بحركته التي لا تنتهي، أو أجلس في كافيه قرب قوس النصر، أحتسي السكوتش وأتأمل المناظر على الشانزليزيه.

«هلوستُ أحيانًا، متذكّراً شظايا من الأحداث، مثل اليوم الذي أخبرتني به هادلي أنها حامل فاحتضنتها وأخبرتها أن بإمكاني معرفة إن كان ولدًا أو بنتًا. مدّدتها على الأرض وأخرجت من

جيبي قدم الأرنب التي تجلب الحظ، وقد زال فروها إثر سنوات من كثرة الفرك لجلب الحظ. طلبت منها أن تبقى دون حركة بينما أدليت قدم الأرنب فوق وجهها. إن تحرّكت إلى اليسار فهي بنت، وإن تحرّكت إلى اليمين فهو صبي. حبسنا أنفاسنا بينما تحركت القدم بلطف إلى اليمين. قهقهت هادلي وقفزت واقفة وقالت، «فلنحتفل... لنشتر قمعًا من البطاطا المقلية والسجق من البائع الواقف عند الزاوية ولنذهب في رحلة إلى حدائق تويلري».

"الثلج يتساقط".

«"أفضل بكثير... بإمكاننا قذف التماثيل بكرات الثلج".

«"أحبك يا قطتي".

«"هل ستحبني إلى الأبد؟"

«إلى اللانهاية».

«"لا أعرف الكثير عن اللانهاية".

«"اللانهاية تبدأ عند نهاية مدى الحياة".

«"أوه، نعم، أرجوك.. إلى اللانهاية".

«كانت هناك ليالٍ قاسية من الشعور بالهلاك وبلوغ الحضيض، ألقيت فيها بنفسي إلى أدنى قعر، مثل كافيه دوز أماتورز النتن، وهو بالوعة على شارع موفيتارد، مكتظة بالسكارى معدومي الأمل، والمومسات المنبوذات، واللصوص الحقيرين، والقوادين الفاشلين. أن أهبط إلى مستواهم كان طريقة لتوبيخ نفسي التي سوّدت روحي».

توقف إرنست، وألم الذكريات يغمر عينيه ووجهه. مال إلى الأمام وغرف ماءً قُرْبَ كتلة ثلج وبلّل به صدره ورقبته. جلس كذلك برهة، وطنين الحشرات هو الصوت الوحيد المسموع. اعتقدت أن تلك نهاية ذكرياته. لكنه نزل قليلاً في الماء الضحل وتابع: «تلك هي المرات التي فكرت بها بالانتحار بجدية. ليس قطع الرسغ أو نفاثات الغاز التي من الممكن أن تُنقذ منها. ربما الموت وأنا نائم، لكن كيف؟ أو بطريقة ما وأنا أتزلج، مثل أن يتوقف قلبي وأنا أنزلق بسرعة على الثلج، أو في

انهيار جليدي، إلا أن الاختناق طريقة بغيضة للموت. ذهبت للتزلج بغية الحصول على بضعة أيام من الوحدة وناقشت الانتحار بالانهيار الجليدي مع فراولن غلاسير في فندق توب. سردت عليّ قصصًا عن أشخاص لقوا حتفهم في انهيارات جليدية، ما أقنعني أنها ليست طريقة مُستساغة للموت.

«قررت أن الطريقة المثالية هي القفز من سفينة أثناء الليل. كل ما تحتاجه هو الجرأة على القفز. سيكون ذلك سهلاً لي، فأنا أحب الغوص. لن يكون هناك تشريح بعد الوفاة. اختفاء فقط. سيبرئ ذلك بولين من الخطيئة، وتتجنب هادلي تطليقي، ويُقال لبَمبي أن الملائكة جاءت وأخذت أباه.

«لم تستمر النوبات الانتحارية تلك فترة طويلة، إلا أن المئة يوم ظلّت تطاردني. وجدتُ بعض السلوى في كنيسة القسيس سولبيس. برجان توأمان، ثلاثة طوابق من الأعمدة الفخمة، دقيقة للغاية، بحجم نوتردام تقريبًا، لكنها تبعث الاطمئنان أكثر، وتقع خلف حديقة لوكسمبورغ. مررت بها أكثر من مرة مع هادلي وبَمبي وهو في عربته، إلا أننا لم نذهب لحضور القداس، كونها كنيسة كاثوليكية. قصدْتُها بعد ذلك كثيرًا. ليس للصلاة، رغم أن بولين، وهي كاثوليكية ورعة، حاولت تلقيني ذلك، إلا أن ما جذبني هو النقوش القديمة الباهتة، التي تمجّد الخالق الأعظم وخلود الروح، على المدخل الرئيسي. شعرت أني في مكاني هناك. كنتُ قد كتبت قصة، "أتمدّد الآن" والتي تصوّر كيف شعرت بروحي تغادر جسدي وتعود إليه بعد أن انفجرت بي عبوة في الحرب ليلاً. الآن، وقد أسأتُ لروحي، كرهت النوم لأني خفت، إذا أغلقت عينيّ في العتمة، أن تنسلّ من جسدي وترحل، لكن، مع قليل من الحظّ، تعود. لهذا أخذت روحي في زيارة لأحد المعابد الصغيرة الجميلة داخل كنيسة سانت سولبيس والتي تصبح أكثر جمالاً بعد، عندما تُعزف آلة الأرغن الضخمة. على الأرجح أنه الأرغن الأكبر والأكثر تألّقًا في العالم. كان مائلًا على حائط تصدر منه موسيقى رائعة غامرة غذّت روحي وأنعشتني لأيام بعد الاستماع لها».

نادتنا ماري للغداء على الشرفة. قال إرنست إنه لن يتمكّن من الأكل في هذا القيظ، لكنه خرج من البركة، جفّف جسمه، توجه إلى الشرفة، وجلس أمام الطاولة.

بعد الغداء، الذي تكوّن من وصفة ماري الخاصة لشوربة الفواكه الباردة، ذهبنا للقيلولة. توجه إرنست وماري إلى البيت الرئيسي، بدرجه الخارجي الحديدي المؤدي لغرفة النوم في الطابق الثاني، وذهبت أنا إلى بيت الضيوف الذي كان يحتوي على مروحة سقف لحسن الحظ (كان إرنست

ضد التكييف تمامًا). حاولت النوم لكني لم أنجح في ذلك. قضيت بعض الوقت أراقب عقربًا كبير الحجم يستكشف المنطقة حول سريري.

عدت إلى الشرفة، حيث كان جيش من اليعاسيب يتراقص فوق الماء. انضم إليّ إرنست في النهاية، وهو يحمل كأسي نبيذ. ذكّرته أنه كان يحدّثني عن المئة يوم قبل الغداء.

«تلك الأيام السوداء»، قال وهو يهز رأسه، «شطبتها من تقويمي كما يشطب السجين أيامه. كانت الليالي سيئة خاصة، إلا أنّ بعض الأماكن ساعدتني على الالتهاء عنها. أحدها لو جوكي، وهو بارٌ راقٍ في مونبارناس، فيه موسيقى جاز رائعة، وعازفون سود موهوبون أُغلقت في وجوههم الأبواب في الولايات المتحدة لكنهم لاقوا الترحيب في باريس. تعوّدت الجلوس عند البار. نساء جميلات على حلبة الرقص. موسيقى جاز رائعة من نيو أورلينز. الساكسفون، الأبواق، الطبول كما لم أسمعها من قبل. في إحدى تلك الليالي، لم أستطع التوقف عن النظر إلى امرأة جميلة على حلبة الرقص، طويلة، بشرة بلون القهوة، عينان سوداوان، ساقان ممشوقتان مغريتان. كانت ليلة شديدة القيظ، إلا أنها كانت ترتدي معطفًا من الفرو. كانت ترقص مع رقيب بريطاني ضخم وعيناها مثبتتان عليّ، وعيناي مثبتتان عليها. تركتُ مقعدي على البار وقاطعت البريطاني الذي حاول دفعي بكتفه، إلا أن المرأة تركت الرجل البريطاني وجاءت إليّ. رماني العريف بنظرات كالرصاص. تعرّفت إلى المرأة. اسمها جوزفين بيكر، أميركية، وهو ما فاجأني. أخبرتني أنها على وشك أن تُشارك في العروض الافتتاحية في فوليز بيرغير وأنها جاءت من تمارين الاستعداد.

«سألت: لماذا الفرو في ليلة دافئة في حزيران. فتحت معطفها للحظة لتكشف أنها كانت عارية. "ارتديت أي شيء"، قالت. "لا نرتدي الكثير في «فوليز». لماذا لا تحضر؟ سأؤدي دور الإلهة السوداء". سألتني إن كنت متزوجًا. أخبرتها أني مُعلّق، وأن هناك امرأتين، إحداهما زوجتي، وأنهما غير مستعدتين للوصول إلى تسوية.

«"يجب أن نتحدث"، قالت. "كنت في وضع مشابه ذات مرة".

«اقترحتُ أن نذهب لاحتساء المشروب في مكان لا يصمّنا فيه صوت الساكسفون. وافقتْ لكنها اعتقدت أن الرقيب البريطاني قد يعترضنا. كانت محقة. حاول البريطاني منعنا من المغادرة.

"لقد جاءت معي"، قال، "وستغادر معي". أجبتُه، "هذا قرار تتخذه السيدة". ردّ البريطاني أنه سيكون في انتظاري في الخارج.

«ما إن غادرنا الدوكي حتى قبض الرقيب على ذراعي، ممزقًا كمي، لفّني ورماني على الحائط، فهجمتُ عليه. تعاركنا ونحن نستمع لصفارات رجال الشرطة وهم في طريقهم إلينا. تغلّبت عليه وطرحته عندما اقتربت صفارات الشرطة. حملت جوزفين كمي الممزّق عن الأرض وشدّتني بعيدًا.

قضيت تلك الليلة مع جوزفين، جالسين حول الطاولة في مطبخها، نحتسي الشامبانيا التي بعثها إليها أحد المعجبين. تحدثتُ دون توقف عن مشاكلي، محللًا، شارحًا، مُدينًا، معلًّلا، وكان أغلب كلامي هراء. أصغت جوزفين جيداً، متعاطفة. كانت مستمعة رائعة. قالت إنها عانت من حب مزدوج أيضًا.

«"أخاف على روحي"، أخبرتها. "أي سبيل أسلكه، سأتسبب بأذية إحدى المرأتين، وهذا سيئ لروحي. لقد كانت على وشك أن تتركني مرّة في السابق، وأنا خائف من أن يؤذي ما أقوم به روحي، ويدفعها عنّي، دون عودة". سألتها كيف أتمكّن من إقناع روحي بعدم إدانتي.

«أخذت جوزفين وقتًا لتجيب. قالت إن شعورها إزاء روحها مثل شعوري إزاء روحي، وأن الدعاء الوحيد هو الذي تدعو به لروحها، فروحها هي دينها. "بالفعل، الأحاسيس القاسية تؤذي الروح وترسلها إلى مكان أفضل"، قالت. "أنت بحاجة لحدوث أشياء حميدة في حياتك يا إرني، لتنقذك أنت وروحك".

«بقينا تلك الليلة، وحتى الفجر، نتحدث عن أرواحنا، عن طريقة أقنع فيها روحي ألا تنبذني، رغم هجري لإحدى المرأتين وإيلامها».

أخبرتُ همنغواي أني أتذكر أنه كتب عن الجوكي والعراك مع الرقيب البريطاني في إحدى قصصه، إلا أن الفتاة لم تكن جوزفين بيكر.

«لا»، قال، «فكّرتُ أن مشاعرها عن الروح تخصّها وحدها، لهذا اخترعت امرأة لتحلّ مكانها في القصة وتركت كل شيء عن الروح. لا أستخدم أسماءً حقيقية في كتاباتي. كتبت عن

سكوت، مثلاً، لكني أعطيته اسمًا مستعارًا: جوليان [في «ثلوج كلمنجارو»].

«كان أحد الأماكن المفضلة لديّ خلال ليالي الأرق هو حديقة لوكسمبورج المألوفة. قصدْتُها للاستماع إلى الحفلات الغنائية على منصة في الهواء الطلق، وهي مساحة مرتفعة عمرها قرن، محاطة بالأعمدة الحديدية المزخرفة. كنت أبقى بعد انتهاء الغناء، حيث يبدأ بعض العازفين في الغناء المرتجل، ويقدّم مالك البافيليون النبيذ الفوار تحديًا لقانون ساعات الإغلاق. ساعد في ذلك أن الحارس المناوب كان صهره. في إحدى المرات، كان هناك حارس بديل للصهر، وعندما رفضت مغادرة الحديقة، تلقّيت مخالفة للتسكّع.

«في بعض الليالي توجهت إلى الحديقة متأخرًا جدًّا ونمت على مقعد فيها تحت أشجار الكستناء المفضلة لديّ قريبًا من نافورتي المفضلة.

«ذات ليلة سيئة، قصدتُ أبعد جهة في حديقة لوكسمبورغ حيث تنفتح على شارع دي تورنون. كان هناك نسخة أصلية لتمثال الحرية، شعلتها أعلى من رأسي ببضع أقدام، تُعرّف بها اليافطة البرونزية المثبتة على قاعدتها».

«في تلك الليلة، مثل الليالي الأخرى التي كنت أشعر فيها بالانتكاس والرغبة بالعودة إلى الولايات المتحدة، ساعدني قضاء بعض الوقت مع هذه السيدة المألوفة. عندما راودني ذلك الشعور، كنتُ أزورها أحيانًا لتباركني، مثلما يقصد زائر الكنيسة قسيسه المفضّل.

الحرية تُنير العالم

أوغست بارتولدي (1834-1904)

بمناسبة المعرض العالمي لعام 1900، قدّم النحات أوغست بارتولدي إلى متحف لوكسمبورغ هذا النموذج البرونزي لتمثال الحرية في نيويورك. تم وضع هذا التمثال في عام 1906 في حديقة لوكسمبورغ.

«في تلك الليلة بالذات، كنت أشعر بشيء من الامتعاض من مأزقي، وبنوع من الذعر، واضعًا اللوم على سحر باريس، وليس على صنيعي.

«جلست هناك على مقعد مواجهًا سيدة الحرية وعدتُ بذكرياتي إلى أوك بارك، وإلى اليوم الذي تركتُ فيه منزلنا، وتذمّر أمي الخانق. فرحلتُ وحدي دون أي شيء سوى إصراري على الرحيل. كنت في التاسعة عشرة، نصف متشوّق إلى المغامرة، نصف خائف. الذهاب إلى إيطاليا ومجد أن أصبح ضابطًا في خضم المعركة [الحرب العالمية الأولى]، لكنني تعرّضت للانفجار فورًا. انفجرت فيّ قنبلة في خندق وأنا آكل سندويشة جبنة، المستشفى والتعافي في ميلان وما بعدها، عدُت أعرج إلى أوك بارك، لتنبذني الممرضة التي ظننت أني سأتزوجها، عالقًا في البيت مع أمّ ورعة لا تكف عن الاقتباس من الإنجيل.

«الآن، ظننت أنه يجب عليّ أن أعرج مرة أخرى وأن أعود إلى الولايات المتحدة وأنزل عن برجي العاجي الأدبي وأنبذ هذا الغرور بأني أنتمي إلى هذا المكان، حيث دمّرتُ حياتي وحياة أولئك الذين أحرص عليهم فعلاً. كم هو مؤسف أن أفكّر بالانتحار بجدية على أنه الطريق الوحيد للخلاص. قلت هذا كله لسيدة الحرية، وفي قولي هذا، أدركت كم أصبحت جبانًا.

«ساعدتني حديقة لكسمبورغ خلال ليالٍ كثيرة شبيهة بتلك، ليأتي يوم جديد وكأن شيئًا لم يتغير.

«ذات ليلة، بعد سلسلة من الليالي المريرة، قررت أن أزور حينا الأول حيث سكنا في 74 رو دو كاردينال-ليموين في شقة صغيرة مؤلفة من غرفتين في الطابع الرابع من مبنى بدرج حاد الارتفاع. وقفت مقابل مبنانا بطلائه المقشّر، والذي كان يحتوي على صنبور مياه ومبولة في كل طابق، إلا في شقتنا. كان حمامنا خزانة ليس فيها سوى إبريق، ووعاء، وقدر للفضلات علينا إفراغه في وعاء أكبر للفضلات في الطابق الأسفل. كانت القمامة في حاوية نفايات في الفناء على مستوى أربع طوابق إلى الأسفل.

«ذكّرني التفكير بذلك المكان المقفر بجوعي المتواصل. كنا نعيش على أقل من القليل؛ بيضة واحدة لكل منا أو حبة بطاطا للغداء. تمكّنتُ أحيانًا من الإمساك بحمامة في حديقة لوكسمبورغ للعشاء.

«لا أحنُّ إلى تلك الفترة من حياتي، أستطيع إخبارك بذلك. في الشارع نفسه وفي المبنى المجاور كان هناك نادٍ لموسيقى البال، والتي ظلت مفعمة بالحيوية بالدرجة نفسها التي كانت عليها عندما عشت هناك، اليافطة ذاتها على المدخل: نادي كارولاين للرقص. قطعت الشارع ودخلت وطلبت ويسكي من البار. كان نفس المكان المعتم المزدحم المليء بالدخان، والراقصين الذين يرقصون متلامسين على الأرض الضيقة. يضم نفس الخليط من العمال، والبحارة، والهمج الذين يديرون نساءهم حول حلبة الرقص بنوع من رقص الفوكس تروت البهلواني، وخليط من حركات التانغو المتّقدة. في نهاية البار كانت هناك مجموعة من النساء، بينهن مومسات يرقصن معك مقابل عُملة تشتريها من الساقي.

«كما هو الحال في السابق، كان هناك عازف أكورديون على منصة صغيرة يعزف موسيقى مرحة، معززاً اللحن بدق نعل حذائه، وحلقة من الأجراس تحيط بكاحله.

«احتسيت عددًا من كؤوس الويسكي وفكرت في حياتي. بعد برهة، اشتريت عملة واخترت فتاة بشعر أحمر قبيح وابتسامة جميلة. رقصنا ووضعت يدها على رقبتي وصدرها الممتلئ ملتصق بي. لم يضايقني عطرها الرخيص. طلبت منها أن تغادر معي وكانت مستعدة لذلك، لكن عندما وصلنا إلى الباب تراجعتُ. أعطيتها بعض الفرنكات، وغادرتُ وحيدًا.

«أوقفت تاكسي وتوجهت إلى حمام تركي أعرفه، لففت جسدي بالمناشف ونمت وسط البخار حتى الفجر».

الفصل السابع

نـهاية المئة يوم

بعد وجبة العشاء في كي وست تلك الليلة، أبدت ماري رغبتها في الذهاب إلى السينما، إلا أن إرنست رفض بحجة أنه لن يتمكن من النوم بعد الجلوس تحت التكييف لتأثير ذلك على دورته الدموية. حرص إرنست على حماية نفسه دائمًا في وجه طيف من الأمراض الجسدية المحتملة، خاصة في منطقة الكلى، وزاد حرصه بعد الحوادث التي تعرّض لها.

بعد أن غادرت ماري، اقترح إرنست أن نمشي على الشاطئ ونذهب إلى بار يقع على حافة المحيط. كان مكانًا ريفيًّا جميلًا؛ القمر مشعٌ في السماء وتنعكس أشعته على صفحة الماء، وعازف غيتار رائع يسلّينا دون غناء. احتسى إرنست النبيذ واحتسيتُ البيرة.

عندما توقف عازف الغيتار، واصلت الحديث من النقطة التي توقفنا عندها سابقًا ذلك النهار.

«بابا، ماذا حدث عندما انتهت المئة يوم؟» سألته.

«لم تنتهِ».

«ما الذي لم ينتهِ؟»

«بدأت النهاية في اليوم الحادي والسبعين الذي حددتُه على تقويمي. ذلك الصباح، طلبت مني هادلي أن أعتني ببَمبي أثناء ذهابها إلى شارتريه. هل تعرف شارتريه؟».

أخبرته أني لا أعرفه.

«اذهب وتعرف إليه، إنه مكان عريق على ضفاف نهر اليور، على بعد ستين ميلاً من باريس،

يضم كاتدرائية من القرن الثالث عشر بزجاج ملون لا يماثله أي زجاج. كنت أنا وهادلي نستغرق في التأمل هناك ونتجوّل في متاهات الكاتدرائية المعقدة؛ ندور أربع دورات حتى نصل إلى الوردة في المنتصف. فكّرت أنها ستقيم حيث أقمنا، في فندق دي لا في. قضيت اليوم مع بَمبي

وأعدته إلى ماري كوكوت تلك الليلة. غمرني بالسعادة. ذهبنا إلى حديقة الحيوانات وسيرك دو إيفر، لكننا قضينا معظم الوقت في حدائق لوكسمبورغ، في ملعب الأطفال وعلى أرجوحة دوامة الخيل.

«بعد أن توجهت هادلي إلى شارتريه ببضع ليالٍ، كنت أحتسي المشروب في بار دينغو، أتحدث عن الملاكمة مع النادل، جيمي شارتريه، وهو بريطاني من ليفربول، كان ملاكمًا عن فئة الوزن الخفيف في السابق. استخدمتُ بار دينغو عنواناً لإيصال بريدي، وفي تلك الليلة سلّمني جيمي بريدي المتراكم. قرأت اسم فندق دو لا في مكتوبًا على أحد المظاريف، انحبست أنفاسي في حنجرتي. لماذا كتبت لي هادلي؟ خفت من فتحه. أخرجت سكيني من جيبي، فتحتها، مررتها بحذر على طرف المظروف، وفتحت الورقة الوحيدة داخل المظروف. بدأت: "عزيزي إرنست". إنه خط هادلي، بضعة سطور فقط. قالت إنه لم يبقَ سوى ثلاثين يومًا فقط حتى ينتهي الموعد الذي حددته، لكنها قررت أن تمنحني الطلاق الذي كان واضحاً أني أريده. رغم أنها تزوجتني للأفضل وللأسوأ ولم يتضمّن ذلك الزواج من أي شخص آخر، إلا أنها أصبحت الآن صديقة فقط. لن تنتظر قراري وقتاً أطول، القرار الذي شعرتْ أنه واضح. لهذا فهي تمنحني الحرية التي أردتها. قرأت الرسالة مرات عدة حتى أستوعبها. كل رسائل الحب المحمومة التي كتبتها لبولين. لماذا لم أشعر بأي نوع من السعادة الآن، بل بنوعٍ من الخدر؟ هذه الرسالة الموجزة، ليست بالكلمات، لكنها مع هذا تنضح بالألم، الاستسلام، الضياع. هذا كله من صنيعي. أعدت طيّ الرسالة بحذر ووضعتها في جيب جاكيتي الداخلية وغادرت بار دينغو وكلمات جيمي تتبعني: "لم تنهِ مشروبك، سيد همنغواي".

«كنت بحاجة للمشي، وكان القمر لا يزال في السماء حتى وقت متأخر. قطعت بوليفار دو مونتبارناس وأخذت شارع غاينيمير باتجاه شارع بونابارت الضيق، الذي أوصلني إلى نهر السين. لم أميّز أي شيء أو أفكر بأي شيء. عند الدرابزين، راقبت القوارب والسفن تبحر عبر السين تحتي؛ ثم نزلت على الدرج الحجري إلى رصيف مالاكاي حيث أصبحتُ على مستوى النهر. كان هناك صياد واحد يدخن الغليون، يجرّب حظه في منتصف الليل. وجدت مقعدًا صخريًا عند جدار الرصيف وراقبت الحركة على النهر من هناك. تحوّل خدري ببطء إلى واقع رسالتها. أعتقد أني في أعماقي كنت آمل بصورة غير واقعية أنه عند انقضاء المئة يوم ستوافق هادلي على رغبتي في الإبقاء عليهما الاثنتين في حياتي. قد يكون ذلك الوهم هو ما جعلني أستمر، تركني أكتب تلك الرسائل المختلّة إلى بيغوت. لكن رسالة هادلي المقتضبة الصارمة، متخلية عني، جعلتني أشعر بألمها، وعزلِها، والخسارة التي ألحقتها بها، فأصبحت أفكاري قلقة جدًّا تجاه روحي. كانت هذه قسوة

إزاء روحي، الشيء ذاته الذي تحدثت عنه مع جوزفين؛ أهمية أرواحنا، وكيف أن عليّ إعتاق روحي أو معاناة هجرها لي.

«مع مضي الليلة، بدأت أشعر بالنعاس، لكني أجبرت نفسي على البقاء مستيقظًا لأراقب روحي حتى لا تتركني. حتى أبقى مستيقظًا، فعلت ما كنت أقوم به قبل سنوات في الجيش الإيطالي عند مواجهتي مأزقًا مشابهًا. ركّزت أفكاري على مرحلة صباي: الصيد في الغابة مع أبي الذي أعطاني ثلاثة عيارات نارية لبندقيتي؛ الاستماع لمباراة فريق الأشبال مع صديقي بيل ونحن نرشف بعض الويسكي الذي اختلسناه من أبيه؛ صيد السلمون المرقط بعد عودتي من الحرب والتفكير مرة أخرى بأفضل ما اصطدته؛ تلك المرات في الغابة مع البنت الهندية برودي بولتون؛ المشاحنات المؤلمة مع أمي المتدينة؛ تلك الليالي التي جاءت بها الممرضة أغنيس فون كوروسكي - التي كنت لغبائي آمل أن أتزوجها - إلى سريري في المستشفى؛ زفاف أختي جيرالدين؛ الأشياء التي حدثت عندما كنت في التاسعة عشرة ورحلتُ إلى نيويورك، خاصة تلك الليلة التي رماني بها المسؤول عن إيقاف القطار عن العربة فالتقيت على سكة الحديد بملاكم مجنون وحارسه الأسود؛ المومسات الخمس داخل المحطة في انتظار القطار، أكبرهن، أليس، والتي كان وزنها على الأقل ثلاثمئة وخمسين، بحجم ثلاث نساء، لها وجه جميل وتفاخرت أنها عاشرت الملاكم البطل ستيف كيشيل.

«شعرت بالراحة عند بزوغ الفجر أخيرًا على نهر السين، طاردًا معه الليل البغيض ليجلب الحركة إلى النهر. كان صياد منتصف الليل قد غادر إلا أنّ غيره بدأوا في أخذ مواقعهم على جوانب النهر. رفعت جسمي المتصّلب المتعب عن المقعد وصعدت على الدرج الحجري المُتصدّع القديم متوجهًا إلى ستوديو ميرفي. كان من الضروري أن أفعل شيئًا لأرضي روحي. جلست أمام المكتب تحت لوحة ميرفي الضخمة للساعة وبدأت في كتابة رسالة إلى هادلي. أطريت على رد فعلها السخي الشجاع وأخبرتها أني سأطلب من سكريبنر أن تذهب كل حقوقي من رواية "الشمس تشرق أيضاً" إليها. اعترفتُ أني لو لم أتزوجها لما كنت سأؤلف ذلك الكتاب، فقد ساندتني خلال مرحلة الكتابة بولائها المحب ودعمها الماديّ. أخبرتها أن بَمبي محظوظ بالفعل لأنها أمه، وأني معجب للغاية برأسها وقلبها ويديها الجميلتين، ودعوت الله أن يوليها بعنايته ليعوّضها عن الألم الذي ألحقته بها، وأنها كانت أفضل شخص وأكثر شخص عرفتُه حيوية وإخلاصًا ونُبلاً. طويت الرسالة، وضعتها في مظروفٍ عليه عنوان المرسِل وهو عنوان ميرفي، مررت غراء حافة المظروف بعناية على لساني وأغلقتُه بحذر. لقد وصلتُ إلى اللحظة التي انتظرتها بحزم، لكني لم أشعر بالسعادة، حتى أني لم

أبعث برقيةً إلى بولين. ما شعرت به هو حزن الفقدان. لقد دبّرت هذه اللحظة، لكني شعرت أني الضحية.

«أخذت ورقة أخرى وكتبت لبولين أزفُّ لها الأخبار الرائعة، أن هادلي رضخت وأن بإمكانها العودة إلى باريس الآن».

بعد رسالته إلى هادلي بوقت قصير، قال إرنست إنه استلم منها ردّاً تشكره به لإعطائها هي وبَمبي كامل حقوقه من "الشمس تشرق أيضاً" وكذلك تطلبُ منه أخذ حقائب السفر التي كان يخزّنها في غرفة طعامها.

«انتهى ردّها بلمسة أمومية لطيفة تحثّني فيها على التأكد من الأكل كفاية، النوم كفاية، والاعتناء بنفسي والعمل كفاية. وقّعت رسالتها، "مع حب ماما". لقد أثّر ذلك فيّ كثيرًا.

الفصل الثامن

لمن تُقرع أجراس العرس

غادرنا الحانة بعد عودة عازف الغيتار بقليل، وفي طريق عودتنا إلى بيت إرنست سألته عمّا حدث عندما عادت بولين إلى باريس.

«توقّعتُ أن أخلي ستوديو ميرفي وأنتقل إلى شقة بولين في شارع بيكو عند عودتها إلى باريس»، قال إرنست، «وهذا ما جرى. وأخيرًا سنحظى بالوقت للتمتع بحرية العيش معًا، إلا أننا لم نناقش أمر الزواج على الإطلاق، ومن المؤكد أني لم أرغب في الاستعجال بذلك دون فترة انتقال كافية، هذا إن حصل أصلاً. لكن بولين كانت مستعجلة، فحجزتْ كنيسة على الفور للزواج، وهي كنيسة سان أونوريه ديلو في ساحة فيكتور هوغو. زفاف ضخم في كنيسة فخمة! لم يكن هذا ما أريده بالتأكيد. ولا حتى دعوات الزفاف المنقوشة بالذهب التي طلبتْها من كارتييه، ولا البحث عن "شقة فخمة تليق بنا"». قال إرنست أنه لا يحب أن يُضيّق على نفسه، وشعر بالحاجة للتنفس بعمق. لهذا تواصل مع صديقه العزيز غاي هيكوك، مدير جريدة بروكلين دايلي إيغل، الذي اقترح أن يقوما بجولة في إيطاليا موسوليني الفاشية.

«أبلغتُ بولين أني سأذهب مع غاي في رحلة عزوبية إلى إيطاليا للترويج للمجتمع الذكوري، لكنها لم تجد ذلك مسلّيًا لأنه أجبرها على تأجيل حجز الكنيسة لشهر آخر.

«انطلقت أنا وغاي في سيارته الفورد كوبيه القديمة ذات المقعدين، ودخلنا إيطاليا من فينتيميليا وتوقّفنا كيفما اتفق في بيزا، فلورنس، بولونيا وأماكن أخرى قررتُ أنها مناسبة للعُزّاب. كتبتُ عن تلك الرحلة في قصة سميتها بالإيطالية "بماذا همست الأرض لك؟" خفّفت تلك الأيام العشرة الرائعة من ضغوطات الزواج، لكن ليس لوقت طويل.

«عندما عدت إلى باريس واجهتُ أمرين أعاداني إلى الواقع. الأول، أخبرتني بولين أني لن أتمكن من الزواج في كنيسة سان أونوريه ديلو لأني لستُ كاثوليكيًّا، ما يعني أن عليّ في الأسبوعين السابقين للزفاف أن أثبت أني لستُ من أنا. ليس لأن عندي أي شيء ضد الكاثوليكية. كانت بولين كاثوليكية ورعة - في الحقيقة، كان هناك مُصلّى صغير في بيتهم في بيغوت - وقد ذهبتُ إلى كنائس كاثوليكية معها حيث تُصلّي، لكن رابطي الكاثوليكي الوحيد، إذا أردت أن تُطلق عليه ذلك، هو أني أحب لوحة مانتينيا «اليسوع الميت» لليسوع على الصليب، وغيرها من لوحات تصوّر اليسوع على

الصليب. لكن بالنسبة إلى كوني كاثوليكيًا بالفعل، فكل ما بمقدوري القيام به هو إقناع شيوخ الكنيسة أنه عندما أُصبتُ في إيطاليا ونُقلتُ إلى عيادة تطبيب، حيث مدّدوني مع غيري من الجرحى، عمّدنا قسيس من أبروزي وهو يمشي بين صفوف الأسرّة.

«وبالإضافة إلى معاناتي مع الكاثوليكية، وجدتُ في انتظاري إشعارًا بأن طلاقي من هادلي قد تم. لا أعرف لماذا، لكن ذلك أزعجني كثيرًا، رغم أنه كان متوقَّعًا.

«في الفترة التي كانت تستجوبني فيها الكنيسة، واجهتُ مشكلة جعلت شرحي لاعتناقي الكاثوليكية أكثر إقناعًا. المشكلة هي أني لم أتمكن من معاشرة بولين، وهي مشكلة لم أعانِ منها من قبل. حاولت، دون جدوى، ولم تتذمر بولين، لكني اضطررتُ إلى التحدّث عن ذلك الأمر. "أنا أعاني مثل جيك بارنيس"، أخبرتها. "إلا أن لديه سبباً وجيهاً، فقد أصيب عضوه الذكري في الحرب. فما هو عذري؟"

«قالت إنها قد تكون السبب، بانشغالها بالتخطيط للزفاف وعدم القيام بما هو كفاية لي عندما نكون في السرير. "لا"، أجبتُها. "لقد تصرّفتِ بشهامة، لم تتذمري ولم تذكري الأمر، لكن كيف تفسّرين ما يحدث، خاصة أننا كنا رائعين عندما كنتُ مع هادلي؟" سألتني إن كنت استشرتُ طبيبًا. قلتُ إني فعلت، وكذلك تناولت محفزات أخرى مثل الخنفساء الإسبانية والجرعات الصينية، وأنواعًا مختلفة من الحبوب، واستعملت محفزات أقطاب كهربائية ملصقة بخصيتيّ. "على الأرجح أن عليك ألا تتزوجي شخصًا معطوبًا"، قلتُ لها.

«كانت تكره أن تراني أتعذب، قالت، فهل بإمكاني أن أفعل شيئًا لك؟ لمَ لا تذهب إلى الكنيسة وتصلي؟

«قلتُ إنّ الصلاة تنفع معها، لأنها كاثوليكية ورعة، لكني لستُ متديّنًا، وليس لديّ ثوابت راسخة.

«"الله يسمعك".

«كما أني سأشعر بالغباء للركوع لأطلب من يسوع أن يتصلّب عضوي الذكري.

«"هناك كنيسة كاثوليكية صغيرة على بعد شارعين من هنا. جرّبها. ماذا ستخسر؟"

«كنتُ يائسًا، لهذا ذهبت. كان هناك محراب جانبي في الكنيسة الصغيرة وتمثال لمريم العذراء وجدتُ عنده راهبتين تصلّيان. شعرت أنني غبي حين توجهتُ إلى المحراب وركعتُ بخجل أمام العذراء، وعيناي على الراهبتين بينما لم تُبديا هما أي اهتمام لي. تحدثتُ مع العذراء بهمس: "أمنا المقدّسة"، قلت، "لستُ أحد المؤمنين، ولكن امرأتي مؤمنة، ونيابة عنها، لديّ رجاء. أنا ذكر، كما ترين. ومهمّتي هي أن أزرع البذرة، ولكن كي أزرع البذرة أحتاج إلى مجرفة قوية. كان لديّ فيما مضى مجرفة قويّة، يا أمنا العذراء، ولكن ليس الآن، لذا فباسم ابنك يسوع والروح القدس، امنحيني مجرفة قوية كي أتمكّن من زرع بذرتي. آمين".

«عدت إلى الشقة لأجد بولين تنتظر في السرير. التفّت وامتطتني وكانت أفضل مرة نتعاشر فيها على الإطلاق.

«منذ تلك اللحظة، أصبحت أكثر حماسة لإظهار إيماني الكاثوليكي لشيوخ الكنيسة».

عندما وصلنا إلى البيت، حضّر إرنست مشروبين لنا وواصلنا الحديث على التيراس.

«أعتقد أني أخبرتك أن بولين كانت تبحث جاهدة عن شقة أفخم من تلك التي عشتُ بها مع هادلي. ألحّت علي لأساعدها في بحثها، لكني رفضت رفضًا باتًّا. لم أكن مستعدًّا بعد لعجلتها. كان هناك فيض من شيكات الزفاف كل واحد منها بقيمة ألف دولار تأتينا من عشيرة بيغوت الكبيرة (العديد من الهدايا التي تلقّيناها أنا وهادلي كانت قطعًا متوارثة من جيل إلى جيل، لكن آل بيغوت لم يكن لديهم قطع متوارثة)، بالإضافة إلى بعض الهدايا من آنية البورسلين والفضيات، التي، بالطبع، لن تُستخدم أبدًا.

«واصلتُ زياراتي المنتظمة إلى شقة هادلي لاصطحاب بَمبي في الأوقات المحددة لنكون معًا. كانت هادلي تغادر عادةً قبل وصولي، ولكن في إحدى المرّات، كانت لا تزال هناك عندما وصلت. دار بيننا حديث لطيف جدًّا وودّي إلى حد ما، وبشكل غير متوقّع، بدون أي تخطيط مسبق، قلتُ فجأة ودون تفكير إنها إذا أرادتني فأنا أرغب في العودة إليها. ابتسمت وقالت إن الأمور على الأرجح أفضل على هذا النحو. فيما بعد، أمضيت بعض الوقت في حانة دينغو أوبّخ نفسي بقسوة.

«دون أي مساهمة من قِبَلي، نجحت بولين في العثور على شقة في شارع فيرو تناسب مستوى متطلباتها، بغرفة معيشة رسمية وغرفة نوم رئيسية فسيحة وغرفة طعام ومطبخ كبير

وحمّامان وغرفة خادمة وغرفة مكتب. كان العم غاس الكريم أكثر من سعيد بدفع ثمنها، مثلما فعل بالنسبة إلى سيارتنا وبيتنا في كي وست ومركب الصيد الخاص بي ورحلة السفاري الأفريقية الفاخرة التي قمنا بها وكلّفت خمسة وعشرين ألف دولار.

«في العرس، لبست بولين فستانًا صمّمه لها لانفان، وصفًّا من لآلئ كارتييه، وكانت تسريحة شعرها مشدودة جدًّا قريبًا من جلدة رأسها. أما أنا فارتديت بدلة من التويد مع سترة وربطة عنق جديدة».

سألت إرنست إن كان أيٌّ من أصدقائه الذين تخلّوا عنه خلال المئة يوم قد حضر زفافه.

قال، «كلا، لم أدعُهم».

جاءت ماري الى التيراس، عائدة من السينما.

قال إرنست مستخدمًا أحد الأسماء المحببة التي كان يناديها بها، «كنتنر، كيف كان الفيلم؟»

«غيبل عجوز جدًا بالنسبة إلى الدور. عليه أن يعتزل»، ردّت باستفزاز، كما لو أنها خُدعت.

«لا يمكنك خداع الكاميرا اللعينة»، قال إرنست بتعاطف. «ما رأيك في أن تسبحي قليلاً لتلتهي عن التفكير في الأمر؟».

ردّت ماري مشدّدة على كلامها، «لا أريد أن أسبح. أنا ذاهبة إلى السرير. هل أمضيت أنت وهوتش أمسية جميلة؟»

«تناولنا المشروب في سوان».

«هناك أناناس طازج في الثلاجة. هل تحب الأناناس، يا هوتش؟»

قلت إني أحبّه. نزعتْ غطاء علبة بسكويت أعلنت أنه لذيذ مع الأناناس. ثم قالت، «تصبحان على خير»، وذهبت إلى السرير.

«إنها متطلّبة جدًا في أفلام السينما ومن الصعب إرضاؤها»، قال إرنست. كسر قطعة بسكويت إلى نصفين وشاركني بها. «دعنا من الأناناس». نهض ووضع أسطوانة على آلة تشغيل

الأسطوانات. كانت مطربة تغني أغنية بالفرنسية بصوت مبحوح.

«كنّا نتكلّم عن حفل زفافك في كنيسة سان أونوريه ديلو. هل كان هناك موسيقى؟». سألته.

«مجرّد نفخ على الأرغن».

«لا بد أنك كنت متشوّقًا لشهر العسل».

كنت أعرف أن إرنست اختار لشهر عسلهما قرية غرو- دي- روا البدائية المنعزلة، وهو مكان زاره من قبل لتناول الغداء عندما سافرتُ معه بالسيّارة قاطعين الغراند كورنيش ونحن في طريقنا إلى بامبلونا. تقع غرو- دي- روا على بعد بضعة أميال من مدينة إيغ- مورت المحاطة بالأسوار، في آخر مصب لنهر الرون. أحب إرنست جدًّا ذلك المكان، وأدركتُ السبب ونحن نتأمل الأسوار الرائعة التي قال إرنست إن سيمون بوكانيغرا شيّدها في القرن الثالث عشر لحماية إيغ- مورت، المكان الذي أطلق منه الملك لويس التاسع حملته الصليبية. قال إرنست إنه اختار غرو- دي- روا لقضاء شهر العسل ليتخلّص من أُبّهة كنيسة باريس بالإقامة في نُزل متواضع والسير على الشاطىء الأبيض الطويل والسباحة في المياه الهادئة وأكل طعام القرية البسيط.

أضاف أرنست: إنه مكان رائع للكتابة كذلك. كان قد أخبر بولين أنه سيكتب في الصباح ويكرّس فترة ما بعد الظهر لصيد السمك والسباحة والسير على الشاطىء الطويل الجميل. «شعرتُ بالرضى عن قصّتين كتبتهما هناك، "عشرة هنود" و"تلال مثل الفيلة البيضاء"، ولكن كان هناك فترة سيئة لم أكن راضيًا عنها، عندما انزعجتُ مجدّدًا لكوني عاجزًا؛ ليس ذلك ما يفترض بعريس أن يحمله معه إلى شهر العسل. لكن بولين لم تبالِ. سيّان ما فعلتُ وما لم أفعل بالنسبة إليها، فقد فعلت المستحيل لتحصل عليّ ولهذا عاملتني كجائزة من علبة حلوى "كراكر جاك"».

الفصل التاسع

الحياة القصيرة التعيسة للزواج من فايفر

في اليوم التالي في كي وست، لم يظهر إرنست حتى وقت متأخّر من بعد الظهر، عندما وصلنا أخيرًا إلى الهدف من وراء زيارتي: قصص إرنست التي كان من المفترض أن أقتبسها لأعدّها للتلفزيون. قصة معيّنة بالذات، "المقامر والراهبة والمذيع"، كانت تنقصها التفاصيل وكنتُ بحاجة إلى مزيد من المعلومات منه.

كان إرنست مفيدًا للغاية، وعندما انتهينا شعرتُ أني أكثر ثقة إلى حدّ ما في التعامل مع القصص. سكب لنا كأسين «للاسترخاء».

خرجت ماري إلى التيراس برفقة امرأة كوبية قصيرة القامة تحمل طبقًا كبيرًا وضعته أمامنا. «قَلَتْ لكما كارميليتو بعض الحبّار لتتناولاه مع كأسيكما»، قالت ماري. «سنتوجه الآن إلى تيدي لنحضر بعض الكركند وسمك البُنبان للعشاء. هل تريد أي شيء آخر يا حبيبي؟»

«ما رأيك ببعض الأرزّ المفتول مع البُنبان؟»

سألت ماري كارميليتو إن كانت تعرف كيف تحضّر الأرزّ المفتول. من ناحيتي، لم أكن قد سمعت به من قبل، إلا أنّ كارميليتو كانت تعرفه، فغادرتا.

رفع إرنست كأسه وقال: «نخب الأرزّ المفتول». رشفنا الويسكي وأكلنا الحبّار الطريّ الهشّ. كانت الشمس قد غابت ولم يعد الجو حارًّا جدًّا.

«هل سبق أن قرأت ذلك التافه العجوز نيتشه؟» سألني إرنست.

«قليلاً»، أجبته.

«هل تعرف ماذا قال عن الحب؟ قال إنه حالة نرى فيها الأمور بشكل مختلف جدًّا عما هي عليه».

«بولين؟».

«نعم. لم أحتج إلى وقت طويل لأتوقّف عن رؤية تلك الأشياء. أظن أن الأمر بدأ عندما ذهبنا للإقامة مع أهلها في بيغوت. خلال شهر عسلنا في غرو- دي- روا، كنت أفكّر في كتاب جديد. كان هناك العديد من المؤلفات عن الحرب العالمية الأولى التي حاربنا فيها الألمان في فرنسا وألمانيا، ولكني كان لديّ احتكار على إيطاليا والجزء الذي شاركتُ فيه هناك من الحرب. بدأت الكتاب في غرو- دي- روا وكتبت بعد ذلك يوميًّا في بيغوت في الصباح الباكر قبل أن يسود الحرّ الخانق. كانت الأيام والليالي مقفرة وكئيبة مثل الصحراء الكبرى، والأمسيات مع آل فايفر كانت مملّة بشكل مزعج. وبولين، التي بدا أنها تستمتع بتلك التفاهة بعد العشاء، لم تفعل أي شيء لتساعدني على الإفلات منهم. لم يكن هناك أي شيء في بيغوت ليخفف من الرتابة الساحقة للعظام. الصيد الوحيد المتوفر هو صيد السمّانى ولم نكن في موسمه، ولا توجد مياه لصيد السمك. عملتُ على كتابي الجديد من الفجر حتى الظهر، عندما تكون الحرارة أقل حدة. ولكن من الظهر إلى نهاية اليوم، سادت حالة من "البيغوتية" التامة.

اشتدّت الكآبة عندما استلمت رسالة من فيتزجيرالد يُخبرني فيها أن هادلي تزوّجت ثانيةً من بول ماور، وهو صحفي كنت أعرفه. كان رجلًا لطيفًا رزينًا، يعمل مراسلًا لصحيفة "شيكاغو دايلي نيوز" في باريس. قالت الرسالة إنهما سيسكنان في منطقة ريفية قريبة من كريسي- أن- بري، خارج باريس. ما صدمني هو السرعة التي تزوّجت بها هادلي. كان عليّ أن أعلم أن جاذبيتها وشخصيتها الرائعة ستشجّعان الخطّاب على طلب يدها، لكنّ حلمي كان أن تظلّ عزباء حتى، أترك بولين وأعود إليها وإلى بَمبي. وقد بدا ذلك الاحتمال ممكنًا أكثر فأكثر. كنتُ أكتبُ لها رسائل عاطفية منذ الطلاق، كتبتُ لها بما يُقارب تجاوز الحد، كنت أقول لها إنني كلّما رأيت عددًا أكبر من بنات جنسها، زاد إعجابي بها أكثر. في الواقع، أخبرتها في جميع رسائلي أني لا أزال أحبها. واصلتُ الكتابة لها بعد زواجها، بقدر ما تجرأتُ عليه من الحميمية، لكنّ هادلي كتبت لي أخيرًا لتخبرني أن رسائلي تزعج بول شيئًا ما، لذا توقّفت عن مراسلتها بعد ذلك.

«على قدر ما كانت الحياة في بيغوت مثيرة للكآبة، إلا أنها أصبحت أسوأ عندما أعلنت بولين أنها حامل. مثلما تمّ الزواج بسرعة أكثر من اللازم، لم أكن مستعدًا للتغييرات الناجمة عن وجود طفل معنا، ويا له من تغيير لعين. ذهبنا إلى كنساس سيتي لولادة أسهل، لكن بولين خاضت صراعًا رهيبًا في غرفة الولادة طوال ثماني عشرة ساعة مرهقة أفضت إلى عملية قيصرية.

«عشتُ تجربة ولادة سهلة مع هادلي من قبل، ولكن مع بولين، نجمت مضاعفات خطيرة منذ البداية. كان مخاضها شاقًّا وصرخت من الألم بالرغم من أن الطبيب أعطاها حقنة. كنت أعيش ذكرى ألم مختلف، بسبب تلك التجربة مع أبي عندما صرخت امرأة هندية على هذا النحو تمامًا. ذهب أبي، وهو طبيب، إلى مخيم هندي أعلى البحيرة ليعتني بامرأة هندية حامل تعاني من ولادة مستعصية. اصطحبني معه في مركب التجديف إلى رأس البحيرة. كنت عندها فتىً صغيرًا، ربما في السابعة أو الثامنة. شرح لي أبي أن المرأة تحاول وضع طفلها منذ ساعات عديدة لكنّه لم ينجح في الخروج منها. شرح لي أن رؤوس الأطفال يجب أن تخرج أولاً من الأم، ولكن، إن لم يكن الطفل في الوضعية الصحيحة، فيجب شق بطن الأم لإخراجه. لكنه قال إنه لا يملك الأدوات المناسبة، لذا فسيضطر إلى استخدام سكين جيبه. حاولت ألّا أنظر، لكنّي مع ذلك رأيت الطفل عندما أخرجه أبي ورفعه عاليًا. والآن بعد ثماني عشرة ساعة من العذاب مثل المرأة الهندية، سيشقّون بولين لإخراج الطفل بعملية قيصرية. لازمت تلك المرأة الهندية المسكينة أفكاري لوقت طويل. ظننت، بعد مرور الزمن، عندما كتبت عن الواقعة في "المخيّم الهندي"، وعن زوجها الذي قتل نفسه في السرير العالي فوقها، أني طردتُ ذلك من ذاكرتي، لكنّ تلك المحنة الرهيبة مع بولين أعادت إليّ كل شيء.

«استغرقت العودة إلى بيغوت عشرين ساعة في قطار شديد الحرارة والرطوبة، والطفل يزعق طوال الوقت. كنت مستعدًا ليطلقوني من مدفع كي أتمكّن من الهروب. لهذا، ولأحرّر نفسي من معتقل بيغوت، اتصلت بصديق قديم، بيل هورن، والتقيته في كنساس سيتي وذهبنا بالسيّارة إلى مزرعة ترفيهية في وايومينغ حيث أمضيتُ، ولله الحمد، ثلاثة أسابيع ممتعة جدًّا بعيدًا عن بولين، والزعيق، وعشيرة آل بيغوت. كنت أعمل في الصباح على كتابي الجديد، "وداعًا للسلاح"، وأصطاد سمك السلمون المرقّط وطيور القطاة بعد الظهر، وأتعشّى ليلاً بطعام المزرعة الطيّب والويسكي المُهرّب اللذيذ.

«بعد مرور ثلاثة أسابيع، تركت بولين الطفل، الذي أسميناه باتريك، مع أختها جيني وجاءت إلى المزرعة. أصبح ترك باتريك مع جيني لفترات طويلة يتكرر كثيرًا حتى أن الناس غالبًا ما اعتقدوا أن جيني هي أمه. جرّبت بولين بشجاعة أن تصيد السمك وتطلق النار وتركب الحصان لكنها لم تكن بارعة في ذلك، بل بعيدة كل البعد عن مهارة هادلي على ظهر الجواد وبالصيد بالصنارة والبندقية. بدأت أخطّط للذهاب في رحلة صيد إلى أفريقيا، ولكن عندما سمعت بولين بذلك،

أمسكت بزمام الأمور وحملت عمّها الكريم غاس على رعاية رحلة صيد فخمة بخمسة وعشرين ألف دولار. لم تكن ماهرة في تقفّي الطرائد الكبيرة وقنصها لكنّها حاولت مواكبتنا بشجاعة، لا لأنها استمتعت بالصيد بل من أجلي. ذهبتُ في عدّة رحلات صيد أخرى بعد تلك الرحلة، ولكن ليس مع بولين، ولم تكن رحلات بتلك الفخامة».

عادت ماري وكارميليتو وأحضرتا معهما قليلاً من جلد الخنزير المقرمش لنتسلّى به وهما تحضّران العشاء.

سألت إرنست، «هل طعامك دائماً بهذه الفخامة؟»

«لا. ماري تتباهى أمامك».

كان الجلد المقرمش لذيذًا.

«سأخبرك متى انتهت علاقتي ببولين بالنسبة إليّ»، قال إرنست. «عندما أعلنت أنها ستنجب طفلاً آخر. حوّلني الطفل الأوّل إلى مخبول، إلا أنّ طفلاً ثانياً، يولول ويتقيّأ، سيُنهي عليّ، وكاد أن يفعل. هذه المرّة كانت هناك اثنتا عشرة ساعة من الصراع قبل أن يجري الطبيب رحمةً بها عملية قيصرية أخرى. بعد ذلك، أخذني الطبيب جانبًا وأسرّ إليّ أن هذا ينبغي أن يكون حملها الأخير وأنّ عليّ منذ تلك اللحظة أن أقذف في الخارج عندما أعاشرها. هذا ما ينقصني. رُزقنا بولد آخر أسميناه غريغوري، يولول ويزعق أكثر من باتريك. لهذا، مثلما فعلت من قبل، غادرتُ بيغوت بسرعة. ذهبت هذه المرّة إلى كي وست لملاقاة صديقي القديم جو راسيل - أخبرتك أننا كنا الماضي شريكين في "سلوبي جو" - لقضاء أسبوعين في كوبا. أبقى جو مركبه أنيتا راسيًا في هافانا. في الواقع، امتد الأسبوعان ليصبحا شهرين. استأجرت غرفة جانبية في فندق أمبوس موندوس في هافانا، وكنت أخرج أنا وجو كل صباح غالبًا لصيد المارلين.

«كانت هافانا آنذاك مدينة رائعة للسهر بملاهيها الليلية المبهرجة، وطاولات القمار المفتوحة في الفنادق، ومعاهد الرقص حيث تتقاضى الفتيات الجميلات خمسة سنتات للرقصة الواحدة، والمراهنة المتقلّبة في ياي ألاي فرونتون، وهي ملاهٍ ترفيهية بفرق رقص وموسيقيّين، بالإضافة إلى حانة ومطعم فلوريديتا والمرغريتا والمأكولات البحرية الرائعة فيه.

«أمضيت معظم أمسياتي مع جميلة في الثانية والعشرين اسمُها جاين ماسون، جاءت من مجتمع تكسيدو بارك العالي في نيويورك وارتادت مدرسة برايار-كليف. كانت على الأرجح أقلّ شخص كبتًا أعرفه في حياتي. متزوّجة من ج. غرانت ماسون، رئيس "طيران بان أميركان" في كوبا، لكنّها لم تدع زواجها من ج. غرانت المغرور يعيق مغامراتها معي. كنا نذهب للرقص في سان سوسي، يصحبنا ج. غرانت أحيانًا، وكثيرًا ما شاركتني مكاني على طاولة الروليت في الناسيونال. كانت تقود سيّارتها الباكارد الصفراء الكبيرة المكشوفة، وأنا إلى جانبها، في جميع أنحاء هافانا وكثيرًا ما تأتي للصيد على متن الأنيتا لعدّة أيام كل مرّة. علّمتها كيف تصيد المارلين وكانت بارعة جدًا، وبارعة أيضًا في رماية الحمام في "نادي الصيّادين"، والمرأة الوحيدة في ذلك المكان الحكر على الرجال. كنا نقوم أحيانًا بالرماية كفريق في رهانات على مبالغ كبيرة من المال ونربح كل شيء. أثناء تغيّب زوجها لأعماله، وهو ما حدث كثيرًا، كانت تأتي إلى غرفتي في فندق أمبوس موندوس حيث لا أضطر للخضوع لرحمة مسدس الجماع غير المكتمل. لم أصاحب قط امرأة بهذا الجمال من قبل ولا بمثل شخصيّتها المتحرّرة. لم يكن بالإمكان التنبؤ بتصرّفاتها مثل إيلّا فيتزجيرالد وكانت تشبهها من بعض النواحي. كلّما انتابتني الكآبة، أبتهج عندما أفكّر فيها وهي واقفة في مقدّمة الأنيتا وشعرها الأشقر المحمرّ يتطاير وراءها».

«هل كانت بولين تعرف بأمرها؟» سألتُ إرنست.

«حرصتُ على أن تعرف. بخلاف إخفاء علاقتي مع بولين عن هادلي، أردت أن تعلم بولين ما يجري مع جاين. بعثت برسالة إلى بولين أخبرتها فيها كل شيء عن جاين، وحتى أني أرسلت لها صورة لي مع جاين على متن الأنيتا».

«كنت تعطيها الكثير من الذخيرة للطلاق؟».

«كان الوقت قد حان. لكن بولين لم تقترف خطأ هادلي. لا مئة يوم. نالت بولين ما طالبت به كحق لها ولم تكن لتستسلم مهما جرى. كانت مدركة لجمال جاين، فكتبت لي من البيت الذي اشتراه لنا عمها غاس في كي وست أنها ستصلح أنفها العريض وشفتيها غير المثاليتين وأذنيها البارزتين وتزيل الثآليل والشامات كلها قبل أن تأتي لرؤيتي في هافانا لتتنافس مع جاين. عندما كتبت لبولين أني صارعتُ سمكة مارلين عملاقة مع جاين لساعتين وفقدناها، أجابت أننا أنا وهي سنصطاد في

السنة القادمة أسماكًا هائلة وعندما أعود إلى كي وست ستلحقني أينما ذهبت مثل كلب صغير وكذلك سيفعل الصبيّان. هذا تمامًا ما قالته: "مثل كلب صغير"».

«هل فكّرت في البدء بإجراءات الطلاق؟».

«أجل، لكني كنت أعلم أنها ستحاربني بكل قواها وأن شيوع الخبر سيكون سيئًا للصبيّين. ثم، ما هي الأسباب التي بإمكاني تقديمها؟ سيادة القاضي، هجرت العائلة كلّما تمكّنتُ من ذلك، وذهبت إلى وايومينغ وكي وست وكوبا، حيث أمضيت وقتًا رائعًا مع امرأة جميلة مثيرة في الثانية والعشرين صادت السمك معي طوال الليل إلى الصباح التالي وساقت بي في أنحاء هافانا وشاركتني غرفتي في الفندق. ما هي إذن أسبابي الموجبة للطلاق؟ زوجتي بولين أجبرتني على ذلك؟ كلا، كان عليّ فقط أن أنتظر أملاً في تغيّر الوضع، أعيش حياتي، أذهب في رحلات صيد دونها، أقضي بعض الوقت في كي وست، أعمل على كتبٍ خطّطتُ لها مثل "موت في العصر".

«كي تغريني للبقاء في كي وست، أقنعتْ بولين عمها غاس أن يدفع ثمن مركب صيد بطول ثمانٍ وثلاثين قدماً جُهّز خصيصًا من أجلي، البيلار، وهو المركب الذي نصطاد عليه عندما تزورني في كوبا. جئتُ أنا وماري إلى هنا على متنه. لماذا لا نخرج غدًا إلى البحر؟ سيجهّز لنا غريغوريو صنّارتين. لا أظن أن المارلين يمر في هذا الوقت، ولكن هناك الكثير من الأسماك الأخرى».

قلت إن ذلك سيكون رائعًا لأني سأعود إلى نيويورك في اليوم التالي. كان غريغوريو فوينتس متمرّسًا وماهرًا في قيادة المركب عندما يجذب إرنست خيط صنّارته متى ما عضّت سمكة المارلين الطعم، ويعتني بالبيلار عندما يكون راسيًا في كوخيمار، وهي قرية صيّادين قرب مزرعة إرنست. لم يكن هناك أي شك لديّ أن غريغوريو هو الشخص الذي استوحى منه إرنست الرجل العجوز في "العجوز والبحر".

«ماذا حدث لجاين ماسون؟» سألته.

«أمر محزن. حدث بينها وبين زوجها شجار عنيف فقفزت بتهوّر، أو ربّما دُفعت، من الدور الثاني لمنزلهما الفخم في خايمانيتاس، خارج هافانا، وكسرت ظهرها. اضطرّوا إلى نقلها بعناية إلى نيويورك، حيث بقيت وقتًا طويلًا في العمليّات وإعادة التأهيل. عندما عادت إلى كوبا بعد ذلك بحوالى سنة، التقينا مجدّدًا ولكن لم يكن الأمر مثل السابق».

الفصل العاشر

باريس حزينة أحيانًا

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، أحضر غريغوريو البيلار إلى رصيف مجاور وانطلقنا إلى وسط المحيط لقضاء يوم في صيد السمك. كالعادة، ما إن وضع إرنست قدمه على سطح المركب، حتى رفع البحر من معنوياته. شعوره بقدميه العاريتين على الخشب ملأه بالحيوية، فتوجّه إلى دفة القيادة وأدار المركب بثقة أكثر من حركته حول البركة.

كان الوجود في المياه الباردة المنعشة بعد حرارة كي وست الخانقة ممتعًا. رمينا الصنانير المجهزة بالطعم الخاص لصيد سمك المارلين. كما رمينا صنانير إضافية بطعم أصغر لنضمن صيدًا جيدًا إن صدقت تنبؤات إرنست بأن سمك المارلين لن يأكل الطعم.

أثبتت التنبؤات صحتها، لكننّا تلقينا تعويضًا. اصطدتُ سمكة واهو بحجم كبير، وتصارع إرنست مع سمكة أبو شراع طولها ثماني أقدام اصطادها بصنارة المارلين. جذبها إلى المركب بسرعة حتى لا تلتهمها أسماك القرش، بمساعدة من خبرة غريغوريو بتحريك المركب.

بعد الظهر، أعدّ غريغوريو غداءً رائعًا من سمك الهامور الأحمر، والرز بالزعفران، والموز المقلي. وبعد الغداء، نزل إرنست إلى الطابق الأسفل من المركب للقيلولة وجلست أنا على المقدّمة لأتمتع بمراقبة أسراب السمك الطائر تحوم أمامنا.

صعد إرنست عصراً إلى سطح المركب واستلم دفة القيادة من غريغوريو، عائدًا بالمركب إلى حيث انطلقنا. أخرج بيرة باردة لنا من صندوق الثلج الخشبي الذي استخدمه كمقعد. حدّثني عن مرة حالفه فيها الحظ الكبير مع هادلي حيث اصطادا ست عشرة سمكة مارلين في يوم واحد، وكيف أنّ ذلك الإنجاز عنى له أكثر من الفوز بجائزة بولتزر.

مع انقلاب الغسق إلى ظلمة وإضاءة الأنوار، سلّم إرنست دفة القيادة إلى غريغوريو وجلسنا في مؤخرة المركب مع كؤوس دايكيري أعدها غريغوريو لنا.

«هوتشنيك عزيزي»، قال إرنست. «حان الوقت لنعود إلى أوتويل ليشعروا بلدغة شراكة هيم-هوتش».

«أنا مستعد دائمًا إلى باريس»، قلت.

«وأنا كذلك، لكنها أحيانًا حزينة شيئًا ما. مثل تلك المرة التي توقفت فيها بعد عودتي من إحدى السفاري وصدف أن كان سكوت هناك».

سألته إن كان ذلك أثناء علاقته مع بولين.

«نعم، لكن ليس لوقت طويل. سكوت المسكين. كان مكتئبًا للغاية. جاء ليأخذ بعض الأشياء التي تركها في أحد المخازن».

«هل كان مع زيلدا؟».

«لا، كان عليه تركها في مكان ما لرعايتها. شعر بالبؤس والأسى لنفسه، ولها. ونحن نتناول العشاء في مطعم كلوسيري قال: "تخيل، قبل عشر سنوات كنا الفتاة الذهبية وزوجها البشوش، الكاتب الحقيقي. انظر إلينا الآن؛ هي سجينة وأنا حُطام. تذكر أني قلتُ إني أريد أن أموت في سن الثلاثين، ولقد تجاوز عمري الثلاثين واقتربت النهاية. كان لدي سعادتان: الكتابة والثمل. عندما كانت الأمور تسوأ مع زيلدا وأشعر بالإحباط، كان بإمكاني دائمًا التوجه إلى بار الريتز حيث أستعيد اعتزازي بنفسي لنصف ساعة. لكن، مع اضطراري لاصطحاب زيلدا إلى المصحات العقلية، عليّ أن أثمل تمامًا قبل أن أتركها، لأدفع نفس الغرامات في اليوم التالي بسبب ثملي. حاولت الكتابة، لكني نسيت كيف انتشلتُ غاتسبي من أعماقي في وقت بؤس. أشعر بالبؤس الآن، لكن أعماقي مليئة بنبيذ البيوجولي. كما ترى، تلاشت متعة العمل ومتعة الشرب كلتاهما، وخسرت زيلدا منذ وقت لا يعلمه إلا الله، وتخطيت الثلاثين. فهو الوقت الملائم والمناسب كي أموت. كنت محقًّا يا هيم عندما قلت إنّ زواج سكّير من مجنونة ليس تركيبة رابحة".

«أخبرته أنه كان أيضًا محقًّا بشأني. خلال تلك الأيام المئة الرهيبة، كان محقًّا: رجل، ممزق بين امرأتين، سيخسرهما الاثنتين. أخبرته أن بولين ستطلقني أخيرًا».

«"يا إلهي، إننا رجلان خاسران، أليس كذلك؟"

«اقترفت خطأً مع بولين، هذا كل ما في الأمر. خطأً فادحًا لعينًا. تراجع العسكر بينما كان عليهم المضي قدمًا. مهما قالوا لك عن التفكير بالماضي، فهو ليس جسرًا وليس بإمكانك العودة عليه. لو أني لم أحظ بالنجاح بتلك السرعة... لا أدري. خلال تلك الأعوام التي كنت فيها بعيدًا عن باريس،

ومتزوجًا بولين، فقدت إحساسي بما هو مهم وما لا يهم. ثروتها وشهرتي السهلة جعلتا الحياة يسيرة. كان لدينا حياتان منفصلتان. لا نشترك بأي شيء، ولا حتى بالأولاد. لدى بولين الكثيرون ليساعدوها برعايتهما. أفسدتنا أموالها نحن الاثنين. لم تستطع أن تقرر من تكون أو ما الذي أرادت أن تصبحه. أرادت أن ينتقل لها شيء مني. لاحقتني.. وتجنبتها».

«لم يكن شيئًا واحدًا بعينه، لم نتعارك. في الواقع، كنا في غاية المراعاة أحدنا للآخر، لكن كزوجين، لم يبقَ شيء. حياتنا معاً أصبحت مملة. لم نكن مرتبطين. لا شيء نتحدث عنه. قمنا بأشياء مستقلة غالبًا. كان لكل منا مجموعة أصدقاء خاصة. حاولتْ استخدام ثروتها لتربطنا، لكن ذلك أزعجني. كنت قد حققت النجاح لوحدي وأردت أن أحافظ على ذلك.

«"حذّرتك من الشهرة"، قال سكوت؛ "الكفاح أفضل بكثير".

«أعطيت سكوت قطعة الحظ الخاصة بي»، قال إرنست، «قدم الأرنب المهترئة ليعطيها إلى زيلدا».

«"لكن بماذا ستحتفظ؟" سألني.

«"لم أعد بحاجة لها"، أخبرته، فقد نلت كل الحظ الذي أستطيع تحمله».

أحضر لنا غريغوريو بعض الأخطبوط المقلي وملأ كؤوس الدايكيري.

«لا بُدّ أنك شعرت بالراحة»، قلت له. «حين حصلت على طلاقك من بولين أخيرًا».

«نعم، لكن ذلك كان له جانبه السلبي. بعد بدايتي المزعزعة مع الأولاد - أخبرتك كيف رحلتُ عندما كانا صغيرين؛ كل ما هناك أني لم أحسن التعامل في السنتين الأوليين مع المغص وتغيير الفوط - لكني حاولت التعويض بعدها. كان كل شيء على ما يُرام بيني وبين بَمبي. قمنا زيارات منتظمة وقضى الإجازات معي. أثناء الحرب، بلغ رتبة كابتن مع مكتب العمليات الاستراتيجية وكان اسمه كرجل بالغ جاك. نزل بالباراشوت خلف صفوف الجيش الألماني، ووقع في الأسر، لكنه فرّ. وكان لديه سجلٌّ حربيٌّ حافلٌ وظننت أنه سيعمل في الجيش لكنه اختار ألا يفعل وأصبح بائع سندات.

«مع غريغوري وباتريك، كان كل شيء على ما يُرام حتى وقت الطلاق. كان جيجي [اسم دلع غريغوري] المقرّب عندي. ونحن نلعب البيسبول في الساحة أمام الفينكا، اعتاد جيجي أن يحاول طرح قبعات الجميع في أول شوط كي يخسروا مراكزهم. قام بذلك معي أيضًا، فتوجهتُ إليه بعد أن رفعت نفسي من الرمل وقلت: "ألا تعرف شيئًا أفضل من توجيه الرمية إلى أبيك؟" نظر إليّ بلؤم خنزير وحشي وقال: "ألا تعرف أنه لا يوجد أي آباء في الملعب؟"

«كان في غاية الأدب عندما لا يتنافس، الوحيد بين الثلاثة الذي اعترفتُ أني نجحتُ معه. لكنه تلقّى التعليم الكاثوليكي الكئيب في مدرسة كانتربيري حيث كان يبغض معلميه ولا يحب الطلاب الآخرين، ما شكّل عائقًا كبيرًا أمامه. كانت أم جدة جدتي هندية حمراء من قبائل الشايان، وجيجي هو الولد الوحيد الهندي، ليس من شيروكي، أو ديغير، أو بايوت، أو نافاهو، أو أي شعب آخر غير محظوظ، لكنه شايان شمالي، ولديه مشاكلهم كلها، التي عانيتُ منها دائمًا.

«كل شيء تغير بيني وبين غريغوري وباتريك عندما حصلت بولين على طلاقها وبدأت تقلب الولدين ضدي وتسببت بصراع داخلهما لم يكن موجودًا بالفعل. وكانت النتيجة أن انفجرت حياة غريغوري. كان قد التحق بكلية الطب، لكن بعد الطلاق وثورة بولين ضدي، بدأ في احتساء المشروب وتعاطي المخدرات كثيراً وتدهور سلوكه. لن أدخل في التفاصيل، لكن المؤلم هو مواجهاته مع القانون. تولّت بولين أمره وحاولتُ أن أجعلها تتحكم فيه، إلا أن غريغوري وصل إلى مرحلة أبعد من أن أتمكن من عمل أي شيء من أجله».

أخبرني إرنست أنه كان على ما يُرام مع باتريك رغم أنهما لم يصبحا مقرّبين بسبب تلك المرة الفظيعة التي جاء فيها باتريك لزيارة إرنست في كوبا. في اليوم الذي أعقب وصوله، قال إرنست، إن باتريك عانى من صدمة بسبب ارتجاج تعرض له في اليوم السابق في كي وست، عندما ارتطمت سيارة أم جي يقودها أخوه بشجرة بينما كان باتريك جالسًا في المقعد الأمامي. قال إرنست إنّ رأس باتريك ظلّ مشوشًا لأسابيع وعانى جسديًّا، لكنه بقي إلى جوار باتريك ليلاً ونهارًا أثناء الصدمة، وأحضر له أطباء ماهرين ومساعدة خاصة، لكن عندما تعافى وتجلّى تفكيره، لم يتذكر باتريك أي شيء مما حدث، وعندها أخبرته بولين أن إرنست قد هجره وتخلّى عنه وأهمله، وجعلت كل ما قام به إرنست في كوبا يبدو وكأنها قامت به في كي وست. «لا غرابة إذن أن يشمئز مني»،

قال إرنست، «لكنه ولد طيب. نال شهادة الشرف في هارفارد، ثم ذهب إلى تنجانيقا، ليصبح صيادًا أبيض وقام بتجربة ناجحة في زراعة الذرة هناك».

«أنت على حق، يا بابا»، قلت، «هذا شيء مؤسف عن الأولاد».

«حدث شيء مؤسف أكثر في ذلك الوقت في باريس». هزّ رأسه ببطء وأخذ وقته في التذكر.

«كنت في مطعم ليب على التيراس المُسيّج أحتسي المشروب. كان هناك موقف تاكسي وتوقفت سيارة أجرة لإنزال راكب وكان الراكب هادلي. لم ألقِ نظرة عليها منذ طلاقنا. كانت أنيقة للغاية وبالغة الجمال كما تذكرتها. وأنا أقترب منها، رأتني فشهقت ووضعت ذراعيها حولي. التصاقها بي جعل أنفاسي تتسارع. خطت خطوة إلى الوراء ونظرت إليّ.

«"يا إلهي، إرنست"، قالت، "لم تتغير. أنت كما أنت".

«"لكنك تغيرت".

«"أوه؟"

«"تبدين أجمل".

«"أتابع أخبارك في الصحف. "وداعًا للسلاح" رائعة. تعرف، أنت رومانسي".

«"أما زلت تعيشين هنا؟"

«"نعم، منذ مدة".

«"وما زلت متزوجة ما اسمه؟"

«"نعم، ما زلت زوجة ما اسمه".

«"دعوتها إلى مطعم الليب لاحتساء الشامبانيا. تحدثنا عن معارفنا وما حدث لهم. قلت: "تعرفين يا هادلي، أفكر بك كثيرًا".

«"حتى الآن؟".

«"أتعرفين ما أتذكر - مساء نُشرت "الشمس تشرق أيضاً"، وضعت ربطة عنقي الوحيدة وتوجهنا إلى الريتز واحتسينا الشامبانيا مع الفراولة في قاع الكأس. هناك شيء رومانسي عن الفقر عندما نكون في شبابنا ومفعمين بالأمل".

«"أتذكر"، قالت، "وكذلك أتذكر المرة التي التوى فيها كاحلك، وكان علينا إنزالك عن الجبل وأنت جالس على زلاجات الثلج الخاصة بك".

"تعلّمتُ أنا وأنت التزلج على الثلج في ذلك الوقت، لكنك كنت أفضل مني بكثير".

«"لم أكن أفضل، لكن أكثر حذرًا. بالإضافة إلى ذلك، كانت ساقك مليئة بالشظايا. المعجزة أنك استطعت التزلج أصلاً. هل تعرف أني لم أتزلج أبدًا بعد انفصالنا؟"

«"وأنا لم أعدْ إلى شرونز أو بلودينز أو أي من تلك الأماكن التي كنا نرتادها. تلك الرحلات التي كنا نتناول فيها الطعام في الهواء الطلق في ساحة سباقات إنجين، وأول مرة اكتشفنا فيها بامبلونا وكورتينا دي أمبيزو، الغابة السوداء، والأغاني التي كنا نغنيها". بدأت في الغناء وغنت معي هادلي:

موهبة القطة الريشية

خرمشة عيون غيرها

القطة الريشية

لا تعرف المنيّة

يا للخلود.

«"تعرفين يا هادلي؟ البارحة رأيت غجرية تشحذ المال وتذكرت كم كنت غجرية جميلة تلك المرة في كامارورج".

«"أوه يا إلهي، تذكّرتَ ذلك؟ كيف طلينا أنفسنا ببقع عصير الجوز حتى نتمكن من المشاركة في الرقص الغجري".

«"نعم، كلنا حماس، تخيلنا الطعام والنبيذ المسكوب".

«"لا بد أننا كنا في منتهى الجوع حتى نشارك في رقص غجري".

«كنا منهكين جوعًا. مفلسين، ألا تذكرين؟ لم نكن قد أكلنا ليومين».

«"ثم اكتشفنا أنه لا يوجد أي شيء يؤكل. غجر يرقصون في الغبار فقط".

«"أسوأ جزء هو أن بقع الجوز استغرقت أسبوعًا لتزول".

«"كنت غجريًّا وسيمًا. ما زلت أراك في ذلك الوشاح الحريري معقودًا حول جبهتك".

«سألتها إن كان بإمكانها تناول العشاء معي. نظرت إليّ، تتذكرني، وهي تفكّر.

«"لا أعتقد". قلت، "ليس لدي أي دافع خبيث. أريد فقط أن أنظر إليك عبر الطاولة لبرهة".

قالت، «"تعرف يا إرنست، لو أن الأمور لم تكن جميلة جدًّا بيننا لربما ما كنت تركتك بتلك السرعة"».

«"كم مرة ظننت أني لمحتك تعبرين أمامي. مرة في تاكسي متوقف عند إشارة ضوئية. مرة أخرى في اللوفر تتبعت امرأة لها لون شعرك وطريقة مشيك وشكل كتفيك. تبعتها حول المتحف. قد تظنين أنك ستبدئين في التلاشي مع مرور الوقت، لأني لست معك ولا أسمع منك. لكن لا، أنت معي الآن كما كنت معي فيما مضى".

«"سأحبك دائمًا يا تاتي. كما أحببتك في أوك بارك وكما أحببتك هنا في باريس"». رفعت كأسها لتلامس كأسي. شربت آخر الشامبانيا فيها وأرختها وقالت: "عليّ التوجه إلى موعدي".

«اصطحبتها إلى الزاوية وانتظرت معها حتى تحوّلت الإشارة الضوئية. قلت إني تذكرت تلك الأحلام التي حلمنا بها ولا شيء على طاولتنا، وزجاجة النبيذ فارغة. "لكنك آمنت بي في وجه

كل شيء. أريد منك أن تعرفي يا هادلي أنك ستظلين الجزء الحقيقي من أي امرأة أكتب عنها. سأقضي بقية حياتي بحثًا عنك".

«"وداعًا تاتي".

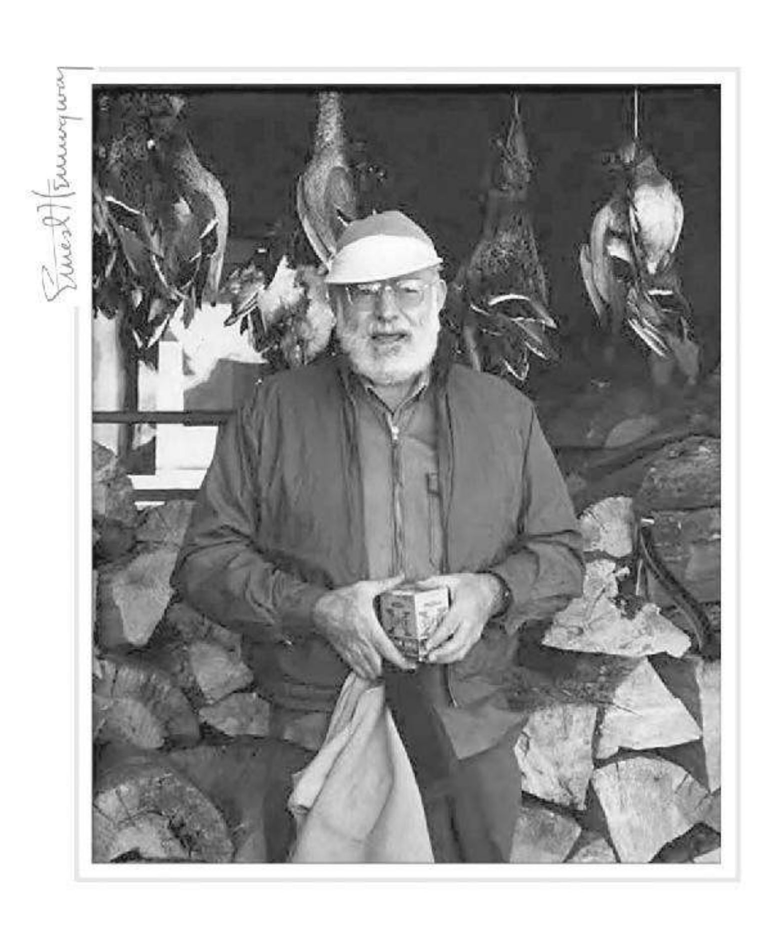
«تحوّلت الإشارة الضوئية إلى اللون الأخضر. استدارت هادلي وقبلتني، قبلة دافئة؛ ثم قطعت الشارع وراقبتها تمشي، مشيتها المعتادة الأنيقة».

بدأت أنوار الشاطئ تظهر عن بعد ووصل إلينا صوت موسيقى بعيدة. مال إرنست برأسه وأغمض عينيه، ربما كان يرى هادلي تغادر مطعم الليب، تلتفت لتنظر إليه نظرة أخيرة قبل أن تختفي على الرصيف المزدحم.

بينما كان غريغوريو يوجه المركب نحو الرصيف، قال إرنست: «كانت تلك آخر مرة رأيتها فيها».



صورة لإرنست، آخر صورة التقطتها له قبل رحيله المُستعجَل من كوبا، حيث ترك جميع مقتنياته، ولم يعد أبدًا. فينكا فيهيا، 1960. أ. إي. هوتشنر



صورة لإرنست في بيته في كيتشوم، أيداهو، بعد خروجه غير المتوقع من قسم الأمراض النفسية من مستشفى سانت ماري. أُجبر على العودة مرة أخرى بعد التقاطي هذه الصورة بفترة قصيرة.

أ. إي. هوتشنر

الفصل الحادي عشر

تلك الغرفة في مستشفى سانت ماري

«سينيور بيكاس»، قال إرنست وهو يعود إلى الغرفة مع الممرضة سوزان، وابتسامة كبيرة تعلو وجهه عندما رآني جوار النافذة. «ما رأيك ببعض الشاي لي وللسيد بيكاس يا سوزي»، قال للممرضة.

«لقد حان وقت قيلولتك، سيد همنغواي»، أجابته.

«وحان الوقت لأغادر هذا المكان، لكن فلنبدأ بالشاي ثم القيلولة، وهي كلمة تنتمي إلى حضانة الأطفال، مثلك».

غادرت الممرضة سوزان لجلب الشاي.

«استخدم الكرسي الوحيد يا بيكاس. سأجلس على السرير. كان يجب أن ترى هذين الطبيبين يقيسان ضغط دمي المتقلّب مرة بعد مرة، يحاولان أن يقررا كم صدمة كهربائية أخرى بإمكاني أن أتحمّل. "لقد دمرتما معظم ذاكرتي"، قلت لهما، "لهذا واصلا صعقي حتى أتمكن من نسيانكما"».

«هل سيتوقفان؟».

«الشيء الذي لا يعرفه أطباء الصعق هؤلاء»، قال إرنست، «هو الكتّاب وما يفعله الندم والأسف بهم. يجب أن يجبروا كل أطباء النفس على دراسة الأدب الإبداعي حتى يتعلّموا شيئًا عن الكتّاب. فلنغير الموضوع. هل رأيت كوب قبل مغادرتك هوليوود؟».

«نعم، في منزله». كان إرنست يشير إلى النجم السينمائي غاري كوبر، والذي كان صديقًا عزيزًا عليه منذ لعب كوب دور الملازم هنري في فيلم "وداعًا للسلاح". كما لعب كوبر دور البطولة في «لمن تُقرع الأجراس»، الرواية حققت نجاحًا في السينما، لكن ليس مع إرنست، الذي اعتقد أن البطلة إنغريد برغمان، بدل أن تبدو مثل المرأة الفلاحة في الكتاب، بدت وكأنها جاءت من هيلينا روبنستاين في إعلان إيبرموكبي أند فيتش. كما كان إرنست منزعجًا لأن كوب عاشر إنغريد في مشهد حقيبة النوم الشهير وأزرار معطفه مغلقة. ومع ذلك، كان من المقرر أن يلعب كوب دور البطولة في فيلم خططت له أنا وإرنست مبني على قصة "عبر النهر وبين الأشجار"، لكنه أُلغي

الآن لأن كوب اكتشف أنه يعاني من سرطان البروستات للأسف. عندما ذهبت لزيارته، كان جسدًا نحيلاً متمددًا دون حركة في غرفته المظلمة.

«هاتفت كوب قبل يومين»، قال إرنست. «لقد تدهورت صحته كثيرًا، أليس كذلك؟ راهنني أنه سيسبقني ويموت. هذه هي الجرأة! انس الهراء المبالغ به - الكرامة، الشجاعة، الجَلَد - هراء! كل ما تحتاجه للموت بصورة صحيحة، الجرأة!».

كنت أعرف أن لدى إرنست مشاعر قوية نحو الموت، خاصة الآن، وأن توجيه تهمة له بأنه يسعى وراء الموت أدى إلى رد قوي منه.

«لقد أصرّوا على أني سعيتُ وراء الموت طيلة حياتي. لو أنك قضيت حياتك متجنبًا الموت بقدر ما يمكن من الحذر، لكنك في الوقت نفسه لا تتقبّل أي رد من الموت، وتتمعّن فيه كما تتمعّن في مومس جميلة بإمكانها أن تجعلك تنام بعمق إلى الأبد دون أي مشاكل أو حاجة إلى العمل، فمن الممكن أن يُقال إنك تمعّنت بها، لكنك لم تسعَ وراءها. لأنك تعرف على الأقل أنك إن سعيت وراءها، فستمتلكها، ومن سمعتها، تعرف أنها ستتركك بمرضٍ مستعصٍ. يكفي هذا الجري الذي لا ينقطع وراء الموت. ليس سوى مومسٍ أخرى».

عادت الممرضة سوزان بصينية عليها كوبان من الشاي وقطعتا بسكويت. قال إرنست إنه خبأ قارورة فودكا للشاي، لكن سوزي المتطفلة عثرت عليها. ابتسمت له وغادرت.

ارتشفنا الشاي وقضمنا البسكويت.

أخبرت إرنست كم أثّر فيّ قراءة ثناءه الحنون لهادلي في آخر فصل أعطاه لي. قلت، «لم يحب أي رجل امرأة أكثر، أو كتب عن ذلك الحب بتلك الرقة».

«هادلي وأنا كنا محظوظين، وكانت النجوم معنا. لقد آمنت بي هادلي وكان هذا أكثر من كفاية للتغلب على ألم رسائل الرفض. تلك القصص كان من الصعب جدًا كتابتها لكن من الأصعب أن تُرفض. عندما تستلم ورقة مطبوعة ملحقة بقصة كتبتها وعملت عليها بجهد وآمنت بها، رسالة الرفض صعبة القبول على معدة فارغة. سيدي، يؤسفنا إخبارك أن ما أرسلته لا يناسب متطلباتنا التحريرية. سحقًا لهم! يؤسفني إخباركم أن رسالة رفضكم لا تناسب متطلباتي التحريرية!

«كانت هادلي تلاحظ رسائل الرفض الممزقة وتطلب مني ألا أشعر بالإحباط، تخبرني أنها أحبت قصصي وفي يوم ما سينشرها شخص وستحقق نجاحًا كبيرًا وستكون صورتي في واجهات محلات بيع الكتب، مبتسمًا وممسكًا بغليون.

«كانت تضع يديها على جانبيَ وجهي وتشدني نحوها وتحتضنني وتجعلني أشعر أن ما بيننا شيء لا يعرفه أي شخص آخر وأن ذلك سيأخذنا أينما نشأ».

«هذا واضح بالفعل في كتابك الجميل»، قلت. «من هو سمكة الزامور الذي دفع بالأثرياء نحوكما؟»

«جون دوس باسوس. كانت نيته سليمة، لكن كان الأحرى به أن يعرف أفضل».

«والأثرياء؟»

«سارا وجيرالد ميرفي».

«لكنهما كانا مخلصين لك».

«أكثر من اللازم».

«لكن باريس التي كتبت عنها خدمتك خدمةً جيدة».

«أفضل ما في تلك المرحلة كتبته قبل زمن بعيد. لو أني فقط أستطيع إكماله. جملة حقيقية واحدة فقط للختام. أقف هنا أمام هذه الطاولة وأحاول يومًا بعد يوم، لكن لا شيء يحضرني. هؤلاء الأطباء الملاعين بصعقهم لدماغي، العذاب الذي يسببه، لقد محوني، لا شيء أتذكره، لا مخزون».

«إنهم يحاولون منعك من قتل نفسك».

«لكن ماذا أعطوني لأواصل؟ عمري واحد وستون عامًا وأنا فارغ. الكتب والقصص التي وعدت نفسي أن أكتبها لن تُكتب أبدًا. بماذا يهتم رجل بعمري؟ أن يكون بصحة جيدة. أن يواصل العمل على ما يحفزه. الأكل والشرب مع أشخاص يعنون شيئًا له. معاشرة النساء. السفر إلى الأماكن التي يحبها. أنا ممنوع من كل ذلك. لماذا عليّ أن أبقى؟ كيف سأدفع ضرائبي اللعينة إن لم أتمكن من

كتابة ما يسدّدها؟ إنهم يطاردونني. هواتف الرواق تتنصّت وكذلك هذه الغرفة. الممرضة سوزي ترسل تقارير إلى مكتب التحقيق الفدرالي».

«بابا، يجب أن تتخلص من هذا الجنون».

«مجنون، أنا؟ راقب ما تقوله عندما تكون في الغرفة».

«لماذا يريد مكتب التحقيق الفدرالي...»

«أؤلف كتبًا مشكوكًا فيها تحدث في بلدان أجنبية: فرنسا وإيطاليا، كوبا الشيوعية وإسبانيا الفاشية.

عشت في وسط الكوبيين الشيوعيين كل تلك الأعوام. أطلق النار. أتحدث لغات لا يفهمها جاي إدغار هوفر. محاميّ، طبيبي، صرّافي، كلهم يتعاملون معه. لقد أفرغوا حسابي المصرفي. على الأرجح أني لن أتمكن من دفع فاتورة المستشفى. إنهم يلاحقونني بسبب الضرائب المتأخرة. لقد حاولت أن أعيش بالطريقة الصحيحة، لكنهم يريدون طريقتهم فقط، لهذا أعيد حياتي إليهم. بإمكانهم أخذ حياتي وليذهبوا إلى الجحيم. هنا حياتي وفيها رصاصة. أهذا ما يريدونه؟ خذوها! إنها لكم».

الرُّهاب، الأوهام، الخوف، الهواجس لم تتغير. الكلمات ذاتها التي سمعتها مرارًا وتكرارًا.

«إرنست، اسمع، نحن بحاجة إليك هنا؛ الناس بحاجة إليك هنا».

«لقد تأخر الوقت يا بيكاس. بحوزتي تأشيرة الخروج».

كانت الدموع في عينيه الآن. أصبح الجو معتمًا وانعكست أنوار الإضاءة خارج النافذة في الغرفة. أرخى إرنست رأسه على صدره وأغمض عينيه. بلغتنا أصوات المستشفى عبر الممر. وصل إلى الغرفة عويل صفارة سيارة إسعاف تدخل ساحة المستشفى، الضوء الأحمر الدوّار يضيء النوافذ وهي تمر. صوتُ تنبيهات مكتومة تنادي الأطباء. شعرت أني قريب جدًا من إرنست. لقد كان بالفعل بابا. كان يعاني، إلا أن الأطباء لم يخففوا من حدة الألم. لم يكن بمقدورهم ذلك. ولا بمقدوري.

رفع إرنست رأسه وأومأ بضع مرات، وكأنه يقرّ بفكرة داخلية أو توق أو اعتراف.

«بيكاس»، قال بصوت رقيق بالكاد يُسمع، «أخبرني شيئًا: كيف يعرف شاب متى وقع في الغرام لأول مرة، كيف بإمكانه أن يعرف أنه سيكون حب حياته الحقيقي الوحيد؟ كيف له أن يعرف؟ كيف يعرف؟»

نظر إليّ بتمعّن، وكأنه يبحث عن جواب.

خلع نظارته، وضعها على طاولة السرير الجانبية، ومسح عينيه بحافة الشرشف، وترك الشرشف مغطيًا وجهه. من تحت الشرشف كرر، «كيف له أن يعرف؟»

خيّم الصمت على الغرفة تمامًا. كانت هناك أصوات الشارع البعيدة. «بيكاس»، قال إرنست من مخبئه: «أظن أنّ عليّ أن أنال قسطًا من النوم وإلا ستبلّغ عني الممرضة سوزي... قد أحلم بباريس».

* * *

جلست هناك لبرهة. حان وقت مغادرتي. كان عليّ أن أستقل طائرة، لكني شعرت بكراهية تركه سجين هذه الغرفة؛ هذا الرجل الرائع الذي أعطى الكثير من نفسه، أن ينتهي بلا شيء. شعرت بالأسى تجاهه وتجاه الحياة الواهنة التي قُدّمت له في هذه النهاية المجحفة.

هذا الرجل، الذي لزم موقعه في هجوم قطيع جاموس الماء، الذي حلّق بمهمات قذف قنابل فوق ألمانيا، الذي رفض أسلوب الكتابة الشائع، وتحمّل الفقر والرفض وأصرّ على الكتابة بطريقته الفريدة، هذا الرجل، صديقي العزيز، كان خائفًا الآن، خائفًا من أن يكون مكتب التحقيق الفدرالي يطارده، وأن جسده يتحلل، وأن أصدقاءه انقلبوا ضده، وأن البقاء على قيد الحياة لم يعد خيارًا.

شعرتُ أكثر ما شعرت به، بالبؤس لعجزي عن إنقاذه من هذه العاصفة الهائجة.

كان نائمًا الآن. جلستُ هناك أتذكر ما قاله ذات مرة عن الحلم:

«عندما أحلم بالحياة بعد الموت، كل شيء يحدث دائمًا في فندق الريتز في باريس. ليلة صيف رائقة. أحتسي كأسَي مارتيني في البار من جهة كامبون. ثم أتناول عشاءً رائعًا تحت شجرة

كستناء في لا بيتيت جاردين، الحديقة الصغيرة التي تواجه ذا غريل. بعد بضع كؤوس براندي، أصعد إلى غرفتي وأتمدد على أحد أسرّة الريتز الكبيرة. كلها مصنوعة من النحاس. هناك مسند لرأسي بحجم طائرة جراف زيبلين وأربع مخدات مربعة محشوة بريش الوز الحقيقي؛ اثنتان لي واثنتان لرفيقتي السماوية».

لو أني بقيت ليوم آخر، يومين، أكثر، فلن أستطيع التخفيف عنه، سأزيد يأسي فقط. بتردد، وقفت وقطعت الغرفة، ووخز التماس صوته الرقيق في أذني إلى الأبد: «كيف بإمكانه أن يعرف أنه سيكون حب حياته الحقيقي الوحيد؟ كيف له أن يعرف؟ كيف يعرف؟»

فتحت الباب. كان الرواق خاليًا.

أغلقت الباب بهدوء، على أمل أن يحلم صديقي بأنه في غرفته المفضّلة في الريتز، من جهة الحديقة، في سرير نحاسي ضخم مع رفيقة سماوية كنت متأكدًا أنها هادلي.



صورة لإرنست خارج منزله في كيتشوم، كما أتذكره. أ. إي. هوتشنر

ملحوظة

بعدما تركته بأسبوعين، ودون إكمال دورة المعالجة بالصعقات الكهربائية المقررة، سمح أطباء مايو لإرنست بمغادرة المستشفى.

بعد ذلك بأسبوع، في بيته في كيتشوم، أوهايو، انتحر.

بعد خمسين عاماً من موته، واستجابة لالتماس من «حرية المعلومات»، نشر مكتب التحقيق الفدرالي ملفه حول همنغواي، والذي كشف أنه منذ أوائل 1940، وضع جاي إدغار هوفر، إرنست تحت المراقبة لأنه تشكّك في نشاطاته في كوبا. وعلى مدى السنوات التالية، قدّم محقّقو التحري تقارير عنه وتنصّتوا على هاتفه. استمرت المراقبة أثناء مكوثه في مستشفى سانت ماري. على الأرجح أن هاتف الرواق كان مراقبًا وأن الممرضة سوزي كانت عميلة لمكتب التحقيق الفدرالي.

نُشر ثناء إرنست لباريس وهادلي بعد موته. كرّمته بإعطاء الكتاب عنوانه: "وليمة متنقلة".

تحققت أمنيتي في أن ألتقي يومًا ما امرأة أحبُّها، كما أحبُّ هادلي.

صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

♦ روايات وقصص عالمية ♦

الروائي باولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- أليف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعِبَر)
- بريدا (رواية)
- الجاسوسة (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كومبوستيلا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الرابح يبقى وحداً (رواية)
- الزانية (رواية)
- الزَّهير (رواية)
- ساحرة بورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والآنسة بريم (رواية)
- على نهر بييدرا هناك جلستُ فبكيتُ (رواية)
- فيرونيكا تقرّر أن تموت (رواية)
- مخطوطةٌ وُجِدت في عكّرا (رواية)
- مكتوب (عبارات وعِبَر)
- هيبّي (رواية)

جين ساسون

- بنات سموّ الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)
- خيار ياسمينا (قصة)
- سموّ الأميرة (قصة)
- سموّ الأميرة: الأسرار المباحة (قصة)
- سموّ الأميرة: حفنةٌ أخرى من الدموع (قصة)
- لأنك ولدي (قصة)
- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)
- ميّادة ابنة العراق (قصة)

جون غرين

- سلاحف إلى ما لا نهاية
- ما تخبّئه لنا النجوم

راوي حاج

- الصرصار (رواية)
- كرنفال (رواية)
- لعبة دي نيرو (رواية)

غيربرند باكر

- التوأم
- المنعطف

مارغريت دوراس

- التدمير
- مرض الموت



- «الأصولي» المتردِّد – محسن حامد
- ألف عام من الصلاة (قصص قصيرة) – ييون لي
- اعترافات غايشا – آرثر غولدن
- امرأة من ماريوبول – ناتاشا فودين
- بساط من الزهر الأحمر: البحث عن أفغاني – تيتوهر بازير
- بومبي – روبرت هاريس
- بيل كانتو – الرهينة – آن باتشيت
- حكاية الشتاء – بول أوستر
- حياة – دافيد فاغنر
- الخجل والكرامة – داغ سولستاد
- دماء الأزهار – أنيتا أمير سفاني
- عند تلاشي الضوء – أويغن روغه
- فتاة من بلغراد – لويس دو بيرنيير
- اللعنة على نهر الوقت – بير بيترسون
- متتالية فرنسية – إيرين نيميروفسكي
- مدينة بوهاين – كيفن باري
- موعظة عن سقوط روما – جيروم فيراري
- الناس والآخرون – قدري قلعجي

♦ مكتبة نوبل ♦

توني موريسون

- الديار

سلسلة الأدب

- رحمة

◆ ◆ ◆

- **حبٌّ عزّم** – دوركيو ميتيا (تخلّى عن الجائزة مرّتين)
- **الضفادع** – مو يان
- **العاصفة** – جان ماري غوستاف لو كليزيو
- **الموت غرقاً** – كنزابورو أوي

◆ روايات وقصص قصيرة ◆

رجاء نعمة

- شيطان في نيو قرطاج (رواية)
- مذكّرات امرأة شيعيّة (رواية)

روحي طعمة

- امرأة للشتاء المقبل (قصص قصيرة)
- لا أحد يفهم ما يدور الآن (شعر)

سردار أوزكان

- حين تستحيل الحياة نوراً (رواية)
- الوردة الضائعة (رواية)

سليم اللوزي

- خلف العتمة (رواية)
- قبائح ملوّنة (رواية)

شاكر نوري

- جحيمُ الرّاهب (رواية)
- الرواية العمياء (رواية)
- مجانين بوكا (رواية)

د. عبد السلام فزازي

- الزمن المستعار... (رواية)
- ويسألونك عن الذاكرة (رواية)

عماد بزّي

- خلف أسوار بيروت (قصص قصيرة)
- فوق أرض لبنان (قصص قصيرة)

ليلى عسيران

- الاستراحة
- جسر الحجر
- الحوار الأخرس
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً
- المدينة الفارغة

د. محمد طعّان

- رحلة بيهان (رواية)
- صيف الجرّاح (رواية)

منى دايخ

- إيزيس في القدس (رواية)
- بوح أنثوي (شعر)
- طلاق الحاكم (رواية)
- غزَل العلوج (رواية)

ملك محمد جودة

- أنا... والعيون الزجاجية (رواية)
- رواية ١٩٥٣ (رواية)

د. نعمة الله إبراهيم

- السيَر الشعبية العربية (قصص قصيرة)
- فروخ ناز – ألف يوم ويوم (قصة)

نوال السعداوي

- إنه الدم (رواية)
- نوال السعداوي وعايدة الجوهري في حوار حول الأنوثة والذكورة والدين والإبداع (دراسة) – د. نوال السعداوي و د. عايدة الجوهري

يسرى مقدّم

- الحريم اللُّغوي
- صباح الخامس والعشرين من شهر ديسمبر

◆ ◆ ◆

- **أرملة مهندس** – صالح ابن عايض
- **إعصار بالتيمور** – حسين عبد الرحمن سبيتي
- **إمرأة... وظلان** – خلود عبدالله الخميس
- **ابن الحزب** – فيصل فرحات

- بائع الفستق – سمير عطا الله
- حقيبة حلم – عاطف البلوي
- رقص تحت أشجار الكستناء – عباس جعفر الحسيني
- الرؤيوان (قصص قصيرة) – عمرو عبد الكريم
- سأعطيك الحلوى شرط أن تموت – وائل رداد
- سوريّو جسر الكولا – ياسين رفاعية
- صورة على هاتف جوّال – إقدام منصور
- العطر والفقر وما بينهما (قصص قصيرة) – إسماعيل الأمين
- عشاق أمي (قصص قصيرة) – هاجر عبد السلام
- الغشوة – راضي شحادة
- في وسط العاصمة حانة مسحورة – ساندرا تربونة
- في حديقة الملك – ميّادة العسكري
- قصة مشربية – قصة يوطوبيا – حسن فتحي
- محاولات اغتيال علي (قصص قصيرة) – محمد بركات
- محاولة متأخرة للبكاء (قصص قصيرة) – زينة حموي
- مولود وثلاثة آباء – نائل ماجد مجذوب
- نهاية جيل – محمد سعيد طالب
- هل يفرّقنا الدين؟ – حسن السيد أسعد فضل الله
- همنغواي الأديب العاشق – أ. إي. هوتشنر
- ١٨ يوماً في ميدان التحرير – قصة رامي حبيب ورسم أحمد سليم

◆شعر◆

سليم حيدر

- آفاق
- أشواق
- إشراق
- ألوان
- ألحان
- أشجان
- لبنان
- يا نافخ الثورة البيضاء
- ألسنة الزمان
- مهرجان العدالة

طلال حيدر

- آن الأوان (شعر)
- سرّ الزمان (شعر)

مهدي منصور

- أخاف الله والحب والوطن
- الأرض حذاء مُستعمَل
- الظلّ فجر داكن
- فهرس الانتظار

هادي مراد

- حرب الجسد
- كما يقع التفاح



- أثواب الحزن – هدى السرازي
- أنظر إليك – مرام المصري
- خريف من ذهب – جوزيف طوبيا
- خطوات أنثى – ردينة مصطفى الفيلالي
- خفيفًا كزيتٍ يُضيء – بلال المصري
- ما يفعله الغريب في الليل – محمد دياب
- مثل الشُكُك – سوسن مرتضى
- ميتينغ **meeting** – جوليان حكيم
- هو وهي في السعودية – حنان بن محمد طاسجي
- وراء الأفق – إبراهيم أبو ودد
- وصيّة شاعرة – ناهد عيد
- يساورني ظنّ أنهم ماتوا عطاشى – غسان علم الدين

◆دراسات◆

د. أحمد حاطوم

- في مدار اللغة واللسان

سلسلة الأدب

- قواعد فَتِّ النُّحاة
- كتاب الإعراب
- المساجلات
- نقوش

محمد توفيق أبو علي

- ضوع الياسمين (شعر – حكايات – خواطر)
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية – (دراسات)

عصام محفوظ

- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون عن تجاربهم (دراسة)
- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان (شعر)

◆ ◆ ◆

- أبعد من الريف: شعراء خالدون في عيون الألف الثالث – لامع الحر
- أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو – د. بكادي محمد
- أحمد فؤاد نجم: تشخيص أوجاع الأمة المصرية – د. كمال عبد الملك
- أُخذةُ كِشِّ: أقدم نص أدبي في العالم – ألبير نقاش وحسني زينة
- إميل بجاني كاتب في الغربال – تأليف عدد من الكتّاب
- جدلية الحب والموت: في مؤلفات جبران خليل جبران العربية – د. بطرس حبيب
- الحب والتصوّف عند العرب – د. عدنان كامل الآلوسي
- الدوائر المتّحدة المركز: دراسة نقدية في شعر نزيه أبو عفش – ذوين باخص
- الرومنطيقيّة في الشعر العربي المعاصر – د. فيكتور غريّب
- سنوات ضائعة من حياة المتنبي – هادي يحيى الخفاجي
- طه حسين (من الشاطئ الآخر) – عبد الرشيد محمودي
- علم الإبداع – د. مروان فارس
- مها قلت... لا تقل – نبيل سليمان
- موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العامية – إعداد: منير عبود

منشورات المجلس القطري للثقافة والفنون والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها (دراسة) – هارالد هارمان
- فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر (شعر) – د. محمد الجعيدي
- هل كنا مثل أي عاشقَين؟ (رواية) – ناتشو ساريا

بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

- أصل الغواية (قصص قصيرة) – منتهى العزة
- باب للخروج (رواية) – طارق فراج
- حبيبتي الخليلة (شعر) – أحمد طقش
- الخامدون (قصص قصيرة) – ربى عنبتاوي
- تسرين سنموت الليلة (رواية) – خديجة نمري

د. شكري نصرالله

- الثالث (رواية)
- قالوا... وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم (حِكَم وأشعار)
- كنوز العرب (حِكَم وأقوال مأثورة)

Notes

[1←]
نُشِرت بالعربية بعنوان «عبر النهر ونحو الأشجار».

[2←]
الفارس الذي يفتتح مصارعة الثيران - المترجم.